الاسلام والنصرانية

مع

العلم والمدنية

تأليف حكيم الاسلام . الاستاذ الامام .

الشيخ محمد عبده

قدس الله روحه

وهي مقالات نشرت في مجلة «المنار» الاسلامي

لصاحبها

« السيد محمد رشيد رضا »

﴿ الطبعة الثانية ﴾

بمطبعة مجلة المنار باول شارع درب الجماميز بمصر

سنة ١٣٢٣ هجرية

مقدمة الطبعة الثانية

الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى . وبعد فان كتاب (الاسلام والنصرانية . مع العلم والمدنية) الذي كتبه لمجلة المنار الاستاذ الامام ، حكيم الاسلام ، الشيخ محمد عبده قدس الله روحه في دار السلام ، كتاب قد جمع من مزايا الدين ، ومن ارشاد المسلمين ، مالم يسبقه الى مثله سابق ، ولا يكاد يلحقه به لاحق ، وقد كان له أيام نشره من التأثير ، مالم يعهد له في قومنا نظير ، ولم يمر على طبعه على حدته سنتان حتى أوشكت نسخه أن تنفد وعزمنا على اعادة طبعه عند سنوح الفرصة . ولما رزىء الاسلام في هذا الشهر بوفاة الاستاذ الامام تغمده برحمته . أنشأ الناس يتنبهون لما كان من التفريط في تلقي ارشاده وهدايته ، ويتداركون ذلك بالبحث عن آثاره ، والاقبال على قراءة مصنفاته والاطلاع على أفكاره ، فشرعنا في اعادة طبع هذا الكتاب وليس لدينا من نسخه الا نحو سبعين نسخة طلب منا خمسون منها لمدينة الزقازيق وحدها . ونسأل الله تعالى أن ينفعنا والناس بآثار هذا الامام ، وأن يجزيه بفضله وكرمه خير الجزاء آمين

١٧ جمادى الاولى سنة ١٣٢٣ — منشىء المنار

محمد رشيد رضا

مقدمة ناشر الكتاب

بسم الله الرحمن الرحيم

«ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ . إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ»

ظهرت في العالم مدنيات ثم خفيت ، ودُرست فيها العلوم والفنون ثم دَرَست ، وصلحت أحوال الاناسي ثم فسدت ، وطلعت فيهم أقمار الهداية الدينية ثم خسفت ، ولم يزل الناس في قيام وقعود ، وهبوط وصعود ، والامم فى تلاش وفناء ، ونشوء وارتقاء، حتى استعد المجموع في جملته للرقي العام، فنحه الله تعالى دين الاسلام،

جاء الاسلام والعالم كله فى تأخر من جميع الوجوه — من جهة الدين ، من جهة العلم ، من جهة المدنية ، من جهة السياسة ، فلم يمر قرن واحد حتى جدد للعالم كله ديناً قيماً ، وعلماً محكماً ، ومدنية سعيدة ، وسياسة رشيدة ، ونشر ذلك كله في مشارق الارض ومغاربها بقوة الحق ، وسرعة البرق ، فتنير به وجه الارض ونفخ فى الانسان روحاً جديداً أعطاه من جراثيم الحياة مالا يقبل الفناء ، ماذامت الارض والسماء، (١)

«١» بيان أركان الاصلاح الاسلامي غير قابلة للهدم فى مقالات متعددة نشرناها في مجلدات المنار كمقالات «الاصلاح الاسلامي» والمقالة التي افتتحنا ... .

ينبوع تفجر في أرض وفاض ماؤه على غيرها فأحيا الارض بعد موتها ولكن القائمين على حراسته وتعاهده وضعوا فوقه أنقاضاً من خرائب جيرانهم فغيض الماء وما بقي منه صار مستنقعات تجتوى . لم يلبث بعد ما فاض أن فاض منه شيء في مواضع أخرى فانتفع أهلها به وحافظوا عليه ولكن الاكثرين منهم لا يعرفون من أين جاءهم كما ان أكثر أهل الينبوع المنتسبين اليه بالاسم لا يعرفون أن ذلك الماء الذي تفجر في تلك المواضع فأنشأ أهلها به حدائق ذات بهجة هو من ماء ينبوعهم . وأنهم لو أزالوا عنه تلك الانقاض لفاض ورجع اليهم به خصبهم ونماؤهم كأحسن ما كان . إذا هم تعلموا من غيرهم كيف يستخدم الماء للاحياء

ذلك مثل المسلمين اليوم مع الامم الغربية الحية الراقية . أخذ الغربيون من الاسلام كل أصول الاصلاح الذين هم فيه وهم يقولون ان الاسلام عقبة في طريق كل اصلاح . يقولون للمسلمين ان ماءنا صاف نقي يحيي البلاد والعباد وماءكم آسن أجاج أحدث مستنقعات أهلكت الحرث والنسل . فكيف يستوي الماآن . وقد اختلف الاثران ! ؟ منهم من من يقول هذا معتقداً ، ومنهم من يقوله منتقداً ، ونحن ساكتون عنهم ، لانا جاهلون بأنفسنا وبهم .

ما كان الله ليذر المؤمنين على ما أنتم عليه حتى يميز الخبيث من

كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون » ومقالات « سلطة مشيخة الطرق الروحية » وفيها الكلام على تقييد الاسلام السلطتين السياسية والدينية وجعل الناس سواء . وكل هذا في المجلد الاول . وكمقالة « الجنسية والديانة الاسلامية » في المجلد الثاني ومقالة « اعادة مجد الاسلام » ومقالات « مدنية العرب » في المجلد الثالث وكمقالات « الحكومة الاسلامية والقضاء في الاسلام » في المجلد الرابع

الطبيب، ويظهر الحق من الباطل، تتقوم الحجة على الجاهل بديته ونفسه ،والمكابر لوجدانه وحسه،لعلهم يتقون أويحدث لهم ذكرا ، فيرجعوا الى أصول دينهم وهو الاولى بهم والاحرى، فقد أعدهم بنوائب الزمان ، وصروف الحدثان ، لان يعترفوا بذنبهم ، وينيبوا بالتدريج الى ربهم،إذا ظهر فيهم علماء ربانيون،وأطباء روحانيون، يعرفونهم بحقيقة الداء ، ويصفون لهم الدواء، وماطلب الانسان بلسان استعداده شيئاً من مولاه ،الا تفضل عليه به وأعطاه إياه(١)

لهذا سخر الله للمسلمين حكيما من الاعلام ، وأماما من أئمة الاسلام، يطب لدائهم،ويجمع ماتفرق من آرائهم ،وقد كتب في هذه الايام ككتابة جليلة في العلم والمدنية ، بالنسبة الى الديانتين النصرانية والاسلامية ، ردفيها على أحد كتاب المسيحيين قوله ان المسيحية كانت أكثر تساهلاً مع العلم من الاسلام وان الاسلام أكثر اضطهاداً للعلم والفلسفة من النصرانية ، وبين في آخر ما كتبه حال المسلمين السوءى وعدم موافقتها لماتقتضيه طبيعة دينهم فبرأ الاسلام وسلفه من الملام ولكنه لم يبرىء المسلمين المتأخرين بل دلهم على حقيقة دائهم وهداهم الى طريقة معالجته والخروج منه باذن الله تعالى ، ولعمري انه أنذر فأعذر وبرئ من وعيد الكتمان ، فمن اهتدى فانما يهتدي لنفسه ومن ضل فانما يضل عليها ،

الكاتب المسيحي هو رصيفنا الفاضل صاحب الجامعة وقد تكلم في المقابلة بين الدينين المسيحي والاسلامي بالنسبة الى العلم والفلسفة في ترجمة ابن رشد ، وقد ساءت تلك الترجمة من قرأها من المسلمين لهذه المقابلة ولمسئلتين أخريين أحدهما عزو انكار الاسباب الى علماء

«١» راجع مقالة «الاصلاح والاستعداد . على قدر الاستعداد» في المجلد الرابع من المنار

الكلام، والثانية ماتضمنته الترجمة من الحكم بكفر ابن رشد فيلسوف المسلمين الاكبر في الاندلس • وقد رد حكينا على الجامعة في كل ما أخطأت به من الكلام في فلسفة ابن رشد والمتكلمين ومن المقابلة بين الديانتين ونشرنا ذلك كله في المنار ، فأما الكلام في فلسفة ابن رشد ومذهب المتكلمين فهو لايكاد يفيد الا الخواص من العلماء والمتكلمين

وأما الكلام في المقابلة بين الدينين من حيث أثرهما في العلم والمدنية فهو يفيد العوام والخواص ، بل هو الشفاء لما في صدور الناس ، والضياء للباحثين في حنادس الحيرة والوسواس ، لهذا رأيت ان أجمعه في كتاب مستقل وأطبعه ليعم نفعه واستأذنت الكاتب في ذلك فأذن فأنفذت، وعلى الله توكلت •

وأحب أن يكون حظ كل مسلم من هذا الكتاب أن يجتهد في الاخذ بأصول دينه المشروحة فيه وان يقتدي بكرام سلفه في جدهم واجتهادهم وسيرتهم مع المخالفين لهم في الاعتقاد ولا يكون حظهم الافتخار بأن ديننا جامع لخيري الدنيا والآخرة وأن سلفنا كانوا خير أمة أخرجت للناس وان غيرنا ليس كذلك لان كل هذا حجة علينا لا لنا • وهو لا يغني عنا شيئاً في دنيانا ولا في آخرتنا « فبشر عبادي الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولو الالباب»

محمد رشيد رضا

منشئ المنار

بسم الله الرحمن الرحيم

القسم الاول في النصرانية

اضطهاد العلم والمدنية فى النصرانية

(قال الاستاذ الحكيم)

ذكرت الجامعة فى الجزء الثامن من السنة الثالثة فى سياق الكلام على ماجرى لابن رشد ان للناس آراء فى : هل الدين المسيحي أوسع صدرا فى احتماله مجاورة العلم والفلسفة أو ان الدين الاسلامي هو الارحب خلقا والاوسع حلما من الدين المسيحي فى قبول أهل النظر فى الكون اذا نزلوا بداره، ولاذوا بجواره ، وذكرت أن للقائلين بتسامح الدين المسيحي مع العلم وأهله دون الدين الاسلامي أن فولتير وديدرُو وروسو ورنان قالوا فيما يضاد الدين ما قالوا ولم يصابوا بضرر وابن رشد لم يقل شيئا سوى انه قرر ماقال أرسطو وأوضحه مع تصريحه بسلامة اعتقاده ومع ذلك أهين وبصق على وجهه . وللقائلين بسعة حلم الاسلام ان الاسلام لم يحكم باحراق احد لمجرد الزيغ في عقيدته وكم حكمت المسيحية بذلك

ثم جعلت أهل الرأي الاول آخر من يتكلم وقالت : « فيرد عليهم الأولون بقولهم : هل يجب أن يكون التسامح مع القريب فقط أم مع القريب والغريب معا ؛ ثم ألا تذكرون الحروب والفتن التي قامت بين شعوب المسلمين وحكامهم بسبب الاعتقادات الدينية فأضعفت أمتهم ، وفرقت كلمتهم ، فهل يجوز أن تسموا محاربة شخص واحد وإعدامه (محاربة للانسانية) ولا تسموا كذلك محاربة شعب لشعب وأمة لامة » اه

ثم قالت الجامعة إنها لا تفصل بين الفريقين ، ولكنها فصلت فيهما فصلين ، الاول في قولها : « إنا نرى ان السلطة المدنية في الاسلام مقرونة بالسلطة الدينية بحكم الشرع لأن الحاكم العام هو حاكم وخليفة معا وبناء على ذلك فان التسامح يكون في هذه الطريقة أصعب منه في الطريقة المسيحية فان الديانة المسيحية تدفصلت بين السلطتين فصلا بديعا مهد للعالم سبيل الحضارة الحقيقية والتمدن الحقيقي وذلك بكلمة واحدة «أعطوا ما لقيصر لقيصر وما لله لله » وبناء على ذلك فان السلطة المدنية في هذه الطريقة اذا تركت للسلطة الدينية مجالا للضغط على حرية الافراد من أجل اعتقاداتهم الخصوصية فضلا عن

قتلهم وسقي الارض بدمائهم البريئة فانها تجني جناية هائلة على الانسانية وعلى ذلك لايكون فى هذه الطريقة من التسامح أكثر مما فى تلك اذا بدا منها نقص ولو كان هذا النقص أخذ من نقص شقيقتها لانه لانقص أعظم من نقص القادر على التمام » والفصل الثاني فى قولها : « ان العلم والفلسفة قد تمكنا الى الآن من التغلب على الاضطهاد المسيحي ولذلك نما غرسهما فى تربة أوربا وأينع وأثمر التمدن الحديث ولكنهما لم يتمكنا من التغلب على الاضطهاد الاسلامي وفى ذلك دليل واقعي على ان النصرانية كانت أكثر تسامحا » اه

الجواب الاجمالي

واني أعجل فى الجواب بما يلاقي هذين الحكمين اجمالا أما الاول فان كان الانجيل فصل بين السلطتين بكلمة واحدة فالقرآن قد أطلق القيد من كل رأي بكلمتين كبيرتين لا كلمة واحدة . قال فى سورة البقرة «لا إكراهَ فى الدين قد تبيَّنَ الرشدُ من الغيِّ فمنْ يكفرْ بالطَّاغوتِ ويؤمنْ بالله فقد استمسكَ بالعُروةِ الوُثقى لا انفصامَ لها وَاللهُ سَميعٌ عَليمٌ » وقال فى سورة الكهف « وقل الحقُّ من ربكم فمن شاء فليؤمنْ ومنْ شاء فليكفرْ »

وأما الثاني فأسأل الجامعة في جوابه: أين الاضطهاد الواقع على العلماء اليوم عند المسلمين ؟ وأين أولئك العلماء المضطهدون؟ وأريد بالعلماء أولئك الذين يساوون من ذكرتهم من فولتير وديدرو وروسو وأمثالهم . وكيف ساغ لها أن تقول ماتقول وهي في أرض مصر ومصر بلاد اسلامية وحالها كما ترى ؟ فاذا أرادت شاهدا على حال المسيحية والعلم فلتمر بنظرها اليوم على أسبانيا ولتقف برهة من الزمان ثم لتحكم . يمكنها أن تعد من طلبة العلوم المسلمين مئين في مدارس المسيحيين من جزويت وفرير وأميركان وهي مدارس دينية خصوصا مدارس الجزويت . فهل يمكنني أن أجد طالبا واحدا مسيحيا في مدسة دينية اسلامية يباح الدخول فيها لكل طالب علم من أي ملة ؟ لانجد الا قليلا منهم في مدارس الحكومة لعلمهم انها مدارس رسمية لم يقم بناء تعليمها على الدين . فهل سمع ان والدا اضطهد لانه بعث بولده الى مدرسة مسيحية يديرها قسوس مسيحيون؟ ألا يعد هذا من تسامح الاسلام مع العلم اليوم؟(١)

---

(١) مثله اشتراك المسلمين في الجرائد المسيحية وعدم اشتراك النصارى في الجرائد الاسلامية الا نادرا

لولا ان موضوع كلامي محدود باعتبار التسامح بالنسبة الى العلم والفلسفة وحدهما لذكرت لصاحب الجامعة أنه يوجد في بلاده طائفتان تعد آحادهما بالالوف وتزعم كل منهما ان لها نسبة الى الاسلام وهي تعتقد بما لا ينطبق على أصل من أصوله حتى أصل التوحيد والتنزيه عن الحلول ولا تقول بفرض من فروضه المعلومة منه بالضرورة . وأجمع فقهاء الامة على انهما من قبيل المرتدين والزنادقة لا تؤكل ذبائح أفرادهما ولا يباح لهم أن يتزوجوا من المسلمات وإنما اختلفوا في قبول توبة من تاب منهم ومن العلماء من قال لا تقبل توبته . وهم مع ذلك عائشون بجوار المسلمين ومضى عليهم ما يزيد على تسعمائة سنة وقد كانوا تحت سلطان المسلمين والاسلام في أوج القوة . دخلوا في حكم الاتراك وهم أيام كان ملك فرنسا يستنجد بملكم وكانت عساكرهم على أسوار فينا . كان أولئك الذين يراهم المسلمون قد خرجوا من دينهم وأسروا عقيدة تناقض عقيدتهم قد ظهروا بأعمال تضاد أعمالهم وهم جيرانهم وتحت أيديهم وفي مكنتهم محوهم ومع ذلك عاشوا الى اليوم ولهم أحبة وأصدقاء بين المسلمين . وللمسلمين بينهم مصافون

وأوداء ، فهل عهد مثل ذلك عن المسيحيين ؟

غير ان موضوع قولي محدود كما قلت فلا أخرج عنه وأراني نطقت فيه بكلمتي الجملة . ولكن لا يكفي لبيان ما عرضت به الجامعة فى قولها « هل يجب ان يكون التسامح مع القريب فقط أو مع القريب والغريب الخ» ولا لتحقيق الحق فيما حكمت به في حكمها الا تفصيل نعرض فيه حالة الدينين من العلم تحت نظر القارىء على وجه يمكن معه الحكم عن فهم ، ولا تلتبس فيه الحقيقة بالوهم

﴿ الجواب التفصيلي ﴾

أرى الجامعة جاءت فى كلامها باربعة أمور آتي بها على حسب ترتيب النسق في تعبيرها · (الاول) ان المسلمين قد تسامحوا لاهل النظر منهم ولم يتسامحوا لمثلهم من أرباب الاديان الاخر (الثاني) ان من الطوائف الاسلامية طوائف قد اقتتلت بسبب الاعتقادات الدينية (الثالث) ان طبيعة الدين الاسلامي تأبى التسامح مع العلم وطبيعة الدين المسيحي تيسر لاهله التسامح مع العلم (الرابع) ان إيناع ثمر المدنية الحديثة انما تمتع به الاروبون ببركة التسامح الديني المسيحي . فلا بد لي من الكلام على كل واحد من

هذه الامور الاربعة وابتدىء منها بالثاني لقلة الكلام عليه

﴿ نفي القتال بين المسلمين لأجل الاعتقاد ﴾

لم يسمع فى تاريخ المسلمين بقتال وقع بين السلفيين (الآخذين بعقيدة السلف) والاشاعرة مع الاختلاف العظيم بينهما ولا بين هذين الفريقين من أهل السنة والمعتزلة مع شدة التباين بين عقائد أهل الاعتزال وعقائد أهل السنة سلفيين واشاعرة . كما لم يسمع بان الفلاسفة الاسلاميين تألفت لهم طائفة وقع الحرب بينها وبين غيرها . نعم سمع بحروب تعرف بحروب الخوارج كما وقع من القرامطة وغيرهم وهذه الحروب لم يكن مثيرها الخلاف في العقائد وانما اشعلتها الآراء السياسية فى طريقة حكم الامة . ولم يقتتل هؤلاء مع الخلفاء لاجل أن ينصروا عقيدة ولكن لأجل أن يغيروا شكل حكومة . وما كان من حرب بين الأمويين والهاشميين فهو حرب على الخلافة وهي بالسياسة أشبه بل هي أصل السياسة

نعم وقعت حروب فى الازمنة الاخيرة تشبه ان تكون لأجل العقيدة وهي ما وقع بين دولة ايران والحكومة العثمانية وبين الحكومة العثمانية والوهابيين ولكن يتسنى لباحث بأدنى

نظر ان يعرف انها كانت حروبا سياسية ويبرهن على ذلك بالولاء المتمكن بين الحكومتين اليوم مع بقاء الاختلاف في العقيدة وبين الحكومة العثمانية وابن الرشيد أمير الوهابيين

اما الحروب الداخلية التي حدثت بعد استقرار الخلافة في بني العباس واضعفت الامة وفرقت الكلمة فهي حروب منشؤها طمع الحكام وفساد أهوائهم وحبهم الاستئثار بالسلطان دون سواهم . ومصدر ذلك كله جهلهم بدينهم وارتخاء حبل التمسك به في أيديهم . واكبر داء دخل على المسلمين في هممهم وعقولهم انما دخل عليهم بسبب استيلاء الجهلة على حكومتهم . أقول «الجهلة» وأريد أهل الخشونة والغطرسة الذين لم يهذبهم الاسلام ولم يكن لعقائده تمكن من قلوبهم . ولو رزق الله المسلمين حاكما يعرف دينه ويأخذهم باحكامه لرأيتهم قد نهضوا والقرآن الكريم في إحدى اليدين وما قرر الأولون وما اكتشف الآخرون في اليد الأخرى ذلك لآخرتهم وهذا لدنياهم وساروا يزاحمون الاوربيين فيزحمونهم

مالنا وللحكام نعرض لهم ؟ الذي عليّ ان أقول ولا أخشى منازعا : إنه لم تقع حرب معروفة بين المسلمين للحمل على عقيدة

من العقائد أوعلى تركها على ان هذا الامر الذي جاءت به الجامعة والجأتنا الى الكلام فيه خارج عن الموضوع بالمرة لان الكلام فى التسامح الديني مع العلم لا فى تسامح عقيدة مع عقيدة أو دين مع دين والا لأوردنا لها من حروب الطوائف المسيحية بعضها مع بعض وحروبها مع غيرها ما يستغرق أجزاء الجامعة بقية هذه السنة اذا أوجزنا ما استطعنا . هل اذكرها بما كان يقع في القسطنطينية من سفك الدماء بين الارثوذكس والكاثوليك على عهد القياصرة الرومانيين؟ هل اذكرها بحادثة برتلمي سنتهلير التي سفك فيها الكاثوليك دماء إخوانهم البروتستانات وأخذوهم في بيوتهم على غرة وقتلوهم نساء ورجالا واطفالا ؟ بماذا اذكر الجامعة من أمثال هذه الوقائع التي اسودّ لها لباس الانسانية ، وتسلبت لحدوثها البشرية ؟ هل يمكن لاحد ان يروي حادثة مثلها وقعت بين شعوب المسلمين بعضهم مع بعض لخلاف في العقيدة مهما عظم الاختلاف

تساهل المسلمين مع أهل العلم والنظر من كل ملة

ثم أرجع الى الامر الاول من الامور الاربعة لان الكلام عليه أقل منه على الامر الثالث . واني لا أستدل على رعاية

الاسلام من الحكماء على الملل غير المسلمة بقول كاتب مسلم وانما ارجع في جميع ماأذكر الى كتب المؤرخين والفلاسفة من المسيحيين واذكر اسماء جماعة من المسيحيين وغيرهم بلغوا من الحظوة عند الخلفاء وعامة المسلمين وخاصتهم مالم يبلغه غيرهم.

قال المستر درابر أحد المؤرخين وكبار الفلاسفة من الاميركان : « ان المسلمين الاولين في زمن الخلفاء لم يقتصروا في معاملة أهل العلم من النصارى النسطوريين ومن اليهود على مجرد الاحترام ، بل فوضوا اليهم كثيرا من الاعمال الجسام، ورقوهم الى المناصب في الدولة حتى ان هارون الرشيد وضع جميع المدارس تحت مراقبة حنا مسنيه » (هو يوحنا ابن ماسويه الشهير) وقال في موضع آخر : « كانت ادارة المدارس مفوضة مع نبل الرأي وسعة الفكر من الخلفاء الى النسطوريين تارة والى اليهود تارة أخرى . لم يكن ينظر الى البلد الذي عاش فيه العالم ولا الى الدين الذي ولد فيه بل لم يكن ينظر الا الى مكانته من العلم والمعرفة . قال الخليفة العباسي الاكبر المأمون : « الحكماء هم صفوة الله من خلقه ونخبته من عباده لانهم صرفوا عنايتهم الى نيل فضائل النفس الناطقة وارتفعوا

بقواهم عن دنس الطبيعة هم ضياء العالم وهم واضعو قوانينه ولولاهم لسقط العالم في الجهل والبربرية » . وقال في موضع آخر : « ان العرب قد زحفوا بجيش من أطبائهم اليهود ومؤدبي أولادهم من النسطوريين ففتحوا من مملكة العلم والفلسفة ما أتوا على حدوده باسرع مما أتوا على حدود مملكة الرومانيين » .

ولست في حاجة الى ذكر ماأسس الخلفاء والملوك من المدارس وأقاموا من المراصد وماحشدوا من الكتب الى المكاتب لان هذا خارج عن بحثنا الآن وسيرد عليك شيء منه فيما بعد

﴿ طائفة من الحكماء والعلماء الذين حظوا عند الخلفاء ﴾

أذكر ممن اشتهر من الحكماء بالحظوة عند الخلفاء جيورجيس ابن بختيشوع الجنديسابوري طبيب المنصور كان فيلسوفا كبيرا علت منزلته عند المنصور لانه كانت له زوجة عجوز لاتشتهى فأشفق عليه المنصور وانفذ اليه بثلاث جوار حسان فردهن وقال : ان ديني لايسمح لي بان أتزوج غير زوجتي مادامت حية : فأعلى مكانته حتى على وزرائه ولما مرض أمر المنصور بحمله الى دار العامة وخرج اليه ماشيا يسأل عن حاله فاستأذنه الحكيم في رجوعه الى بلده ليدفن مع آبائه فمرض

عليه الاسلام ليدخل الجنة فقال : رضيت ان أكون مع آبائي في جنة أو نار : فضحك المنصور وأمر بتجهيزه ووصله بعشرة آلاف دينار (وهو المنصور الدوانيقي المشهور بالامساك وكزازة اليد) وأوصى من معه بحمله اذا مات في الطريق الى مدافن آبائه كما طلب . ثم سأله عمن يخلفه عنده فاشار الى عيسى بن شهلاثا أحد تلامذته فأخذه المنصور مكان جيورجيس فطفق يؤذي القسوس والبطارقة ويهددهم بمكانه عند الخليفة لينال منهم رغائبه فشعر الخليفة بذلك فطرده

وممن حظي عند المنصور نوبخت المنجم وولده أبو سهل وكانا فارسيين على مذهب الفرس ثم كانت ذرية مسلمة لابي سهل وكانوا جميعا منجمين لهم شهرة في علوم الكواكب فائقة

وممن حظي بالمكانة العليا عند الخليفة المهدي تيوفيل بن توما النصراني المنجم وكان على مذهب الموارنة من سكان لبنان . وله كتب في التاريخ جليلة ونقل كتاب أميروس الى السريانية بافصح عبارة

وممن ارتفع شأنه عند الرشيد من الفلاسفة بختيشوع الطبيب وجبريل ولده ويوحنا بن ماسويه النصراني السرياني .

ولاه الرشيد ترجمة الكتب القديمة طبية وغيرها وخدم الرشيد ومن بعده الى المتوكل . وكان يعقد فى داره مجلسا للدرس والمناظرة ولم يكن يجتمع فى بيت للمذاكرة فى العلوم من كل نوع والآداب من كل فن مثل مايجتمع فى بيت يوحنا بن ماسويه

وممن علا قدره فى زمن المأمون يوحنا البطريق مولى المأمون أقامه كذلك أمينا على ترجمة الكتب من كل علم من علوم الطب والفلسفة . وكذلك ارتفع شأن سهل بن سابور وسابور ابنه وكانا نصرانيين . وولى سابور بن سهل بيمارستان جنديسابور

وكان سلمويه بن بنان النصراني طبيبا عند المعتصم ولما مات جزع عليه جزعا شديدا وأمر بأن يدفن بالبخور والشموع على طريقة النصارى

وكان بختيشوع بن جبريل عند المتوكل يوما فأجلسه بجانبه وكان عليه دراعة حرير رومية بها فتق فأخذ المتوكل يحادثه ويعبث بالفتق حتى وصل الى النيفق (هو ما اتسع من الثوب) ودار الكلام بينهما حتى سأله المتوكل : بماذا تعلمون ان الموسوس (المصاب بخبل فى عقله) يحتاج الى الشد ؟ فقال بختيشوع : اذا عبث بفتق دراعة طبيبه حتى بلغ النيفق

شددناه : فضحك المتوكل حتى استلقى

وفى أيام المتوكل اشتهر حنين بن اسحق النصراني العبادي وهو من أشهر المترجين لكتب ارسطو وغيره وامتحن المتوكل صدقه فظهرت له عزيمة لاتفل فأقطعه اقطاعات واسعة . وكان قد عرف بفصاحة العبارة وحسن الترجمة فى زمن المأمون وهو فتى فكلفه بترجمة الكتب وكان يعطيه وزن مايترجم ذهبا . وكانت بينه وبين الطيفوري النصراني محاسدة أفضت الى طلب الحكم على حنين فى مجلس الاساقفة بالحرم من الكنيسة فمات غما لاضطهاد أهل طائفته له مع عزته وعلو قدره عند الخليفة وهذا الطيفوري أيضا كان من المقربين عند الخلفاء

وممن ارتفع شأنه عند الخلفاء والخاصة والعامة فى زمنه أيام خلافة الراضي متى بن يونس المنطقي النصراني النسطوري كان متفننا فى جميع العلوم العقلية أخذ عنه أبو نصر الفارابي وانتهت اليه الرئاسة فى بغداد وكان من أهل دير قنى ونشأ فى مدرسة مارماري وقرأ على روفابيل وبنيامين الراهبين اليعقوبيين .

ومن المقربين عند الخلفاء قسطا البعلبكي من فلاسفة دولة الاسلام وهو نصراني طلبه الخلفاء الى بغداد لاجل الترجمة ثم يحيي بن عدي بن حميد بن زكريا المنطقي انتهت اليه الرئاسة ومعرفة العلوم الحكمية فى وقته وقرأ على متى بن يونس وعلى أبي نصر الفارابي

ومنهم أبو الفرج بن الطيب فيلسوف عالم . قالوا كان كاتب الجاثليق ومتميزا فى النصارى ببغداد وكان يقرىء صناعة الطب فى البيمارستان العضدي وكان معاصرا للشيخ الرئيس ابن سينا والرئيس يمدح طبه ولا يحمد فلسفته وله كلام فيه

وممن كانت له المكانة الرفيعة عند الخلفاء والخاصة والعامة ثابت بن قرة الحرّاني الصابىء من طائفة الصابئين المعروفة وتربى فى بيت محمد بن موسى بن شاكر الفلكي المشهور وبلغ فى علوم الفلسفة مبلغا لم يدانه فيه غيره وله تآليف كثيرة فى المنطق والطب والرياضيات وبلغ عند المعتضد مقاما تقدم فيه عنده على وزرائه . وولد ثابت هذا سنة احدى عشرة ومئتين بحران . ثم كان ابناه ابراهيم وسنان على قدم أبيهما . ومن حفدته أبو الحسن ثابت بن قرة . وكان ثابت وابراهيم وسنان

صابئين ولهم من المنزلة ما علمت ومدحهم كثير من شعراء المسلمين وهم صابئة

ماذا أعد الجامعة من الفلاسفة والحكماء من الملل المختلفة الذين وسعهم صدر الاسلام ، ولم يضن عليهم بالرعاية والاحترام، هل تريد أن أتم لها الكلام بذكر كثير من فلاسفة الاسلام المسلمين الذين نالوا اسمي الدرجات وأعلى المقامات عند الخلفاء والملوك ؟ هل أنا في حاجة الى ذكر فيلسوف الاسلام أبي يوسف يعقوب الكندي وهو بصري الاصل ابن الامير اسحق الذي كان أميرا للمهدي والرشيد على الكوفة وهو من ذرية الاشعث بن قيس أحد أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان عالما بالطب والفلسفة والهيأة والحساب والموسيقى واشتغل بالترجمة كما اشتغل غيره بها فترجم كثيرا من كتب الفلسفة وأوضح الغامض منها وكانت له المكانة العليا عند المأمون والمعتصم وولده أحمد . هل أنا في حاجة الى ذكر بني موسى بن شاكر محمد وأحمد والحسن الذين اشتغلوا في مساحة الكرة الارضية ومعرفة محيطها وقطرها وما كان لهم من المنزلة عند الامراء والخلفاء ؟ أأذكر ابن سينا ومنزلته في قومه ووصوله

الى مسند الوزارة عند شمس الدولة ؛ أم أذكر الفارابي وما كان له من المكانة عند سيف الدولة بن حمدان .

لا ريب ان أبا العلاء المعري يصلح أن يكون رجلا ممن تعنى الجامعة بنشر تراجمهم وقد قال مالم يقل بمثله فولتير وروسو وقد مات مع ذلك على فراشه وقبره اليوم مزار يرحل اليه في بلده

أظن انه يسهل بعد سرد ما عددناه أن يعرف قراء الجامعة ان الاسلام كان يوسع صدره للغريب كما يوسعه للقريب بميزان واحد وهو ميزان احترام العلماء للعلم . ويسهل على أن ألتمس العذر للجامعة بأنها عندما كتبت ما كتبت تمثلت لها بعض حوادث قيل انها حدثت للدين وما حدثت له . بل كان سبب حدوثها اما سياسة خرقاء . أو جهالة عمياء . أو تأريث بعض السفهاء . لا أطيل خوف الاملال . وانتقل الآن الى الامر الثالث وهو المقابلة بين طبيعة الدينين وهو أهم مما سبق ومما سيلحق

طبيعة الدين المسيحي وأصوله

تمهيد ظنت الجامعة ان الدين المسيحي فصل بين السلطة الدينية والسلطة المدنيـة ولذلك كان في طبيعته التسامح . أما الدين الاسلامي فمن أصوله ان السلطان ملك وخليفة ديني

وذلك مما يصعب معه التسامح في رأيها

ليس هذا بكاف في بيان طبيعة كل من الدينين واستعدادها للتسامح مع العلم أو مع أية عقيدة تخالفها بل لابد من بيان أركان الدين وأهم أصوله التي ترجع اليها جميع الفروع وعنها تصدر الآثار الحقيقية

عند النظر في أي دين للحكم له أو عليه في قضية من القضايا يجب ان يؤخذ ممحصا مما عرض عليه من بعض عادات أهله أو محدثاتهم التي ربما تكون جاءتهم من دين آخر. فاذا اريد ان يحتج بقول أو عمل لأتباع ذلك الدين في بيان بعض أصوله فليؤخذ في ذلك بقول أو عمل أقرب الناس الى منشإ الدين ومن تلقوه على سذاجته التي ورد بها من صاحب الدين نفسه

واني أوجز القول في إيراد الاصول الاولى التي وردت في الاناجيل المعروفة الآن في أيدي المسيحيين، وجاءت في كلام أئمتهم الاولين، ثم ايراد ماجر اليه الاخذ بتلك الاصول بحكم طبيعة الدين،

الاصل الاول للنصرانية الخوارق

أول اصل قام عليه الدين المسيحي وأقوى عماد له هو

خوارق العادات . تقرأ الاناجيل فلا تجد للمسيح عليه السلام
دليلا على صدقه الا ما كان يصنع من الخوارق وعددها فى
الاناجيل يطول شرحه . ثم انه جعل ذلك دليلا على صحة الدين
لمن يأتي بعده فجعل لاصحابه ذلك كما تراه فى الاصحاح العاشر
من انجيل متى وغيره . واذا تتبعت جميع ما قال الأولون من
أهل هذا الدين تجد خوارق العادات ، من أظهر الآيات على
صحة الاعتقادات ، ولا يخفى ان خارق العادة هو الامر الذي
يصدر مخالفا لشرائع الكون ونواميسه . فاذا ساغ ان يكون
ذلك لكل من علا كعبه فى الدين لم يبق عند صاحب الدين
ناموس يعرف له حكم مخصوص

زاد الانجيل على هذا ان الايمان ولو كان مثل حبة خردل
كاف فى خرق نواميس الكون كما قال في الاصحاح السابع عشر
من متي: ١٠ «فالحق أقول لكم لو كان لكم إيمان مثل حبة خردل
لكنتم تقولون لهذا الجبل انتقل من هنا الى هناك فينتقل ولا
يكون شيء غير ممكن لديكم » وفى الحادي عشر من مرقس
« ٢٣ لأني الحق أقول لكم ان من قال لهذا الجبل انتقل
وانطرح في البحر ولا يشك في قلبه بل يؤمن ان ما يقوله

يكون فمهما قال يكون له ٢٤ لذلك أقول لكم كل ماتطلبونه حينما تصلون فآمنوا ان تنالوه فيكون لكم »

فكل بحث يؤدي الى ان للكون شرائع ثابتة وان للعلل والشرائط أو الأسباب أو الموانع أحكاما فى معلولاتها أو ماشرطت فيه أوماتسبب عنها أوما استحال وجوده لوجودها كان مضادا لهذا الاصل فى أي زمن وقد كان كل علم من علوم الاكوان لابد فيه من هذا البحث فكل علم مضاد لهذا الاصل . ثم ان صاحب الاعتقاد بهذا الاصل لا يحتاج الى البحث فى الاسباب والمسببات لأن اعتقاده فى الشيء أن يكون وإرادته لان يكون كافيان فى حصوله فهو فى غني عن العلم والعلم عدو لما يعتقد فما أصعب احتماله اذا جاء يزاحمه فى سلطانه

الاصل الثاني للنصرانية سلطة الرؤساء

وبعد هذا الاصل أصل آخر وهو السلطة الدينية التي منحت للرؤساء على المرؤسين في عقائدهم وما تكنه ضمائرهم . وقد أحكم هذه السلطة ماورد في ١٦ : ١٩ من انجيل متى : « أعطيك مفاتيح ملكوت السموات فكل ما تربطه على الارض يكون مربوطا فى السموات وكل ما تحله على الارض

يكون محلولا فى السموات » وفى ١٨ : ١٨ منه « الحق أقول لكم كل ما تربطونه على الارض يكون مربوطا في السماء . وكل ما تحلونه على الارض يكون محلولا فى السماء »

فاذا قال الرئيس الكهنوتي لشخص انه ليس بمسيحي صار كذلك واذا قال انه مسيحي فذ بها فليس المنتقدحوا في اعتقاده يتصرف فى معارفه كما يرشده عقله بل عينا نلبه مشدودتان بشفتي رئيسه فاذا اهتزت نفسه الى بحث أوقفها قابض على تلك السلطة . وهذا الاصل ان نازع فيه بعض النصارى اليوم فقدجرت عليه النصرانية خمسة عشر قرناطوالا

﴿الاصل الثالث للنصرانية ترك الدنيا﴾

وبعدهذين الاصلين أصل ثالث وهو التجردمن الدنيا والانقطاع الى الآخرة . تجد هذا الاصل فى الاناجيل وفي أعمال الرسل وكلما قرأت فى الكتب الاولى دثرت به . وتجد الاوامر الصادرة بالانقطاع الى الملكوت والهروب من عالم الملك صريحة فى الاصحاح السادس والعاشر والتاسع عشر من انجيل متى . فمما جاء في السادس : « لاتقدرون أن تخدموا الله والمال ٢٥ لذلك أقول لكم لاتهتموا لحياتكم بما تأكلون وبما

تشربون ولا لاجسادكم بما تلبسون أليست الحياة أفضل من الطعام والجسد أفضل من اللباس (الى أن قال) ٣٣ ولكن اطلبوا أولاً ملكوت الله وبره وهذه كلها تزاد لكم ٣٤ فلا تهتموا للغد لان الغد يهتم بما لنفسه يكفي اليوم شره » وقال في التاسع عشر : « ٢٣ الحق أقول لكم انه يعسر أن يدخل غني ملكوت السموات ٢٤ وأقول لكم أيضا ان مرور جمل من ثقب إبرة أيسر من أن يدخل غني الى ملكوت الله » وفي العاشر : « ٩ لاتقتنوا ذهبا ولا فضة ولا نحاسا في مناطقكم ١٠ ولا مزودا للطريق ولا ثوبين ولا أحذية ولا عصا الخ »

وحث على الرهبانية وترك الزواج وفي ذلك قطع النسل البشري قال في (١٩ من متى) « ويوجد خصيان خصوا أنفسهم لاجل ملكوت السموات من استطاع أن يقبل فليقبل ».

ثم ان ملكوت السموات قد نيط أمره بالايمان المجرد عن النظر في الا كوان فماذا يكون حظ صاحب الاعتقاد بهذا الاصل من النظر في أي علم والعلم لا دخل له في شؤون الآخرة والدنيا قد حرمت عليه . لاريب ان همه يكون في الصلاة وصرف القلب بكليته الى العبادة دون سواها وليس

الفكر فى الخليقة من العبادة عنده فان عبادة الانجيل ليست شيئا سوى الايمان والصلاة

الاصل الرابع للنصرانية الايمان بغير المعقول

وبعد هذه الاصول أصل رابع وهو عند عامة المسيحيين أصل الاصول لايختلف فيه كاثوليك ولاارثوذكس ولا بروتستانت وهو ان الايمان منحة لادخل للعقل فيها وان من الدين ما هو فوق العقل بمعنى ماينانض أحكام العقل وهو مع ذلك مما يجب الايمان به . قال القديس أنسيلم : «يجب أن تعتقد أولا بما يعرض على قلبك بدون نظر ثم اجتهد بعد ذلك فى فهم ما اعتقدت » فليس الايمان وهو الوسيلة الفردة الى النجاة فى حاجة الى نظر العقل والكون وما فيه لا يهم المؤمن أن يجيل فيه نظره .وقول القديس « ثم اجتهد بعد ذلك فى فهم ما اعتقدت» نوع من التفضل على النزعة البشرية الى الفهم وعلى الميل الفطري الى تصور ما يتعلق به الاعتقاد والافجرد الايمان كاف فى الخلاص . ثم الويل كل الويل لطالب الفهم اذا أدى اجتهاده الى شيء يخالف ما تعلق به ايمانه فكأن معنى الفهم أن يخلق المؤمن لنفسه ما يسلي به نفسه على ايمانه بغير المفهوم

الاصل الخامس للنصرانية ان الكتب المقدسة حاوية كل ما يحتاج اليه البشر في المعاش والمعاد

ثم ينضم الى الاصول الاربعة خامس وهو ان الكتب المعروفة بالعهد القديم والعهد الجديد تحتوي على كل ما يحتاج البشر الى علمه سواء كان متعلقا بالاعتقادات الدينية والآداب النفسية والاعمال البدنية مما يؤدي الى نيل السعادة في الملكوت الاعلى أو كان من المعارف البشرية التي يتأتى للعقل الانساني ان يتمتع بها . قال تيرتوليان (وهو أفضل من وصف الاعتقاد المسيحي في نهاية القرن الثالث قبل ان تعرض عليه البدع الكثيرة): « ان عقائد المسيحية أسست على الكتب السماوية ودليل صحة هذه الكتب قدمها وكونها أقدم من كتاب أميروس وأقدم من أقدم أثر معروف عند الرومانيين واقدم من تأسيس الحكومة الرومانية نفسها والزمن ناصر الحقيقة ثم تحقق النبوات التي وردت فيها » ثم قال : « ان أساس كل علم عندهم هو الكتاب المقدس وتقاليد الكنيسة وان الله لم يقصر تعليمنا بالوحي على الهداية الى الدين فقط بل علمنا بالوحي كل ما أراد ان نعلمه من الكون فالكتاب المقدس يحتوي من العرفان

على المقدار الذي قدر للبشر ان ينالوه » . فجميع ما جاء في الكتب السماوية من وصف السماء والارض ومافيها وتاريخ الامم مما يجب تسليمه مهما ضارب العقل أو خالف شاهد الحس فعلى الناس أن يؤمنوا به أولا ثم يجتهدوا ثانيا في حمل أنفسهم على فهمه أي على تسليمه أيضا كما ترى وقال بعض فضلائهم : انه يمكن ان يؤخذ فن المعادن بأكمله من الكتاب المقدس

الاصل السادس للنصرانية التفريق بين المسيحيين وغيرهم حتى لاقربين

ينظم تلك الاصول كلها أصل سادس وهو آخرها فيما أرى. ذلك الاصل هو الذي ورد في الاصحاح العاشر من انجيل متى وهو : «٣٤ لا تظنوا اني جئت لأُلقي سلاما على الارض ماجئت لالقي سلاما بل سيفا ٣٥ فاني جئت لافرق الانسان ضد أبيه والابنة ضد امها والكنة ضد حماتها ٣٦ واعداء الانسان أهل بيته . » وقد صرح في عدة مواضع من الانجيل ان الاخلال بشيء من محبة المسيح أو بالانقياد الى جميع ما أوصى به موجب للهلاك وان كان قد جاء في مواضع كثيرة ان الايمان وحده كاف في الخلاص غير ان روح الشدة التي جاءت في قوله

« لاتظنوا اني جئت لالقي سلاما الخ » هي التي بقي أثرها في نفوس الاولين من المتقدين بالدين المسيحي وعفت على آثار ما كان يصح ان تستشعره النفوس من بعض الوصايا الأُخر

نتائج هذه الاصول وآثارها

من هنا أعرض المسيحيون الاولون عن شواغل الكون وصدوا عن سبيل النظر فيه اظهارا للغنى بالايمان والعبادة عن كل شيء سواهما وحجروا على همم النفوس ان تنهض الا الى الدعوة الى ذلك الايمان وتلك العبادة ووسائل الدعوة هي الايمان والعبادة كذلك فاذا نزعت العقول الى علم شيء من العالم وضعوا امام نظارها كتب العهد القديم وحصروا العلم بين دفاتها استغناء بالوحي عن كل عمل للعقل سوى فهمه من عباراته وليس يسوغ لكل ذي عقل فهمه بل انما يتلقى فهمه من رؤساء الكنيسة خوفا من الزيغ عن الايمان السليم (البروتستانت رأوا أنه يجوز تفسير الكتاب لغير الكنيسة)

ثم ان إلقاء السيف ووضع التفريق بين الاقارب والاحبة انما جاء حافظا لذلك كله فاذا خطر على قلب أحد خاطر سوء يرمي الى معارضة شيء من أمور الايمان المقررة وجب قطع

الطريق على ذلك الخاطر ولم يحز فى شأن صاحبه هوادة ولا رحمة كما أفهمه المسيح بعمله على حسب ماورد في الانجيل فقد قيل له : « ٤٧ أمك وأخوتك واقفون خارجا طالبين أن يكلموك ٤٨ فأجاب وقال للقائل له من هي امي ومن هم اخوتي ٤٩ ثم مد يده نحو تلاميذه وقال ها امي واخوتي » . ونحو ذلك مما يدل على وجوب المقاطعة بين من يعتقد بالدين المسيحي ومن يحيد عن شيء من معتقده ولا يخفى ان الشيء يكون بزرة ثم نبتا ثم شجرا فانظر الى ماصار أمر هذه البدايات بحكم الطبيعة

وقر فى نفوس المسيحيين ان السلامة فى ترك الفكر والأخذ بالتسليم وتقرر عند القوم قاعدة « ان الجهالة أم التقوى » (وكثير من أهل الاديان مسيحيين ومسلمين لا يزالون يجرون على هذه القاعدة ببركة ماورثوا عن أبناء الزمن الغابر) فحصروا التعليم في الاديار ومنعت الكنيسة أن ينشر التعليم بين العامة الا ما كان دعوة الى الصلاح و تقرير الايمان على وجه ظاهر . وبقي غير القسيسين فى جهالة حتى بأمور الدين وحقائقه وأسراره . ظهرت ذات الذنب التي تنسب الى هالي فى سنة ١٦٨٢ فاضطربت لظهورها اوربا ولجأوا الى البابا واستجاروا به

فاجارهم وطردها من الجو فولت فى الفضاء مذعورة من لعنته ولم تعد الا بعد خمس وسبعين سنة !!

لم يكن يسمح لأحد أن يبدي رأيا يخالف صريح ما فى الكتاب وعند ما أظهر بلاج رأيه فى أن الموت كان يوجد قبل آدم أي ان الحيوانات كان يدركها الموت قبل ان يخطىء آدم بالأكل من الشجرة قام لذلك ضوضاء وارتفعت جلبة وانتهى الجدال والجلاد الى صدور أمر امبراطوري بقتل كل شخص يعتقد بذلك. يقول المؤرخ : وهكذا عد الاعتقاد بأن الموت كان يزور الاحياء قبل آدم جريمة على الملك

أحرقت كتب البطالسة والمصريين بالاسكندرية على عهد جول قيصر ثم ان تيوفيل بطريرك الاسكندرية انتحل أدنى الاسباب لإثارة ثورة فى المدينة لاتلاف مابقي فى مكتبة البطالسة بعضه بالاحراق وبعضه بالتبديد . قال أوروسيوس المؤرخ انه رأى أدراج المكتبة خالية من الكتب بعد ان نال تيوفيل الامر الامبراطوري باتلافها بنحو عشرين سنة

ثم جاء بعد تيوفيل ابن أخته سيريل وكان خطيبا مفوها له على الشعب سلطان بفصاحته وكان فى الاسكندرية بنت ...

تسمى هيباتي الرياضية تشتغل بالعلوم والفلسفة وكان يجتمع اليها كثير من أهل النظر فى العلوم الرياضية وكان لا يخلو مجلسها من البحث فى أمور أخر خصوصا فى هذه المسائل الثلاث: من أنا والى أين أذهب وماذا يمكنني أن أعلم . فلم يحتمل ذلك القديس سيريل مع ان البنت لم تكن مسيحية بل كانت على دين آبائها المصريين فأخذ يثير الشعب عليها حتى قعدوا لها وقبضوا عليها فى الطريق وهي سائرة الى دار ندوتها وجردوها من ثيابها وأخذوها الى الكنيسة مكشوفة العورة وقتلوها هناك ثم قطع جسمها وجرد اللحم عن العظم ومابقي منها ألقي فى النار. يقول المؤرخ راوي هذه القصة : ولم يسأل سيريل عما صنع بهيباتي ولم تنظر الحكومة الرومانية فيما وقع عليها ولعل ذلك كان أول ماتقررت تلك القاعدة : « الغاية تشفع للوسيلة »

مامن عقيدة ظهرت فى المسيحية وأريد تقريرها من فريق ونازع فيها فريق الا وقد سالت لها الدماء فليراجع التاريخ لتتمثل أرض مصر مصبوغة بدماء المسيحيين من فريقين مختلفين عندما أريد تقرير عبادة العذراء واتخاذها لله أما . كان ذلك فى طبيعة الدين: ان من لم يتبع المسيح فهو هالك والهالك لا يستحق

الحياة. ألم تر في الاصحاح الخامس من الاعمال الى قصة الرجل الذي باع جميع ماعنده وعندما جاء الى بطرس أعطاه الثمن وادخر لنفسه شيئا أخفاه عنه فاطلع بطرس على حقيقة الامر ووبخ الرجل وتصرف فيه بسلب حياته من طريق المعجزة ثم جاءت امرأته وكان لها اطلاع على ما أخفى زوجها ولم تنهه فوبخها بطرس وأخبرها بموت زوجها فماتت هي أيضا . فاذا كان الله يسلب الحياة جزاء على اختلاس الرجل شيئا من مال نفسه لم يقدمه هدية للرسل فكيف تكون الحياة من حقه اذا خالف خلفاء الله في الارض ونابذهم فيما يعتقدون

قال البابا أنوسان الثالث عند الكلام في مصادرة الذين يخالفون العقيدة الكاثوليكية : «لايجوز ان يترك لأولاد الجاحدين سوى الحياة وترك الحياة لهم منّ واحسان» فلم يقصر الجزاء على الجاحدين ولكن عدّاه الى أولادهم وعدّ ترك الحياة لاولادهم يتمتعون بها ضربا من الاحسان عليهم لانهم لاحق لهم في ان يعيشوا وقد جحد آباؤهم

مقاومة النصرانية للعلم

لاأجد في التاريخ ذكرا للعلم والفلسفة بعد ظهور المسيحية

فى مظهر القوة لعهد قسطنطين وما بعده الا فى اثناء المنازعات الدينية التي كان يفصل فيها تارة بسلطان الملوك وأخرى بجمع المجامع وثالثة بسفك الدماء فتخمد شعلة العلم وينتصر الدين المحض . وانما الذكر كل الذكر لما كان بين المسيحية وما جاورها من الملل الأخرى من الحروب الدينية للحمل على العقيدة بما كان يعتقد المسيحيون وما كان يقع بين ملوك أوربا من التسافك فى الدماء بإغراء رؤساء الكنيسة وأمر ذلك معروف عند من له إلمام بالتاريخ وليس من موضوعنا الكلام فيه

ولكن أرى شبه نزاع بين العلم والدين ظهر فى أوربا بعد ظهور الاسلام واستقرار سلطانه في بلاد الاندلس واحتكاك الاوربيين بالمسلمين في الحروب الصليبية

رجع الآلاف من الغزاة الصليبيين الى بلادهم وحملوا الى الناس أخبارا تناقض ما كان ينشره دعاة الحرب من رؤساء الكنيسة من ان المسلمين جماعة من الوثنيين غلبوا على الارض المقدسة واجلوا عنها دين التوحيد ونفوا منها كل فضيلة واخلاص وهم وحوش ضارية وحيوانات مفترسة فلما قفل الغزاة الي ديارهم قصوا على قومهم ان أعداءهم كانوا أهل

دين وتوحيد ومروءة وذوي ودّ ووفاء وفضل مجاملة

ثم كان الخليفة الحكم الثاني جعل من بلاد الاندلس فردوسا كما قال الفيلسوف الاميركاني وكان اليهود والنصارى يتلاقون فى تلك البلاد تحت ظلال الامن والحرية. قال بطرس المحترم الشهير انه رأى كثيرا من العلماء يأتون الى تلك البلاد لتلقي العلوم الفلكية حتى من بلاد انكلترا وأولئك الذين يسعون الى طلب العلوم من أي بلاد جاؤا كانوا يجدون فيها رحبا وسعة وكان قصر الخليفة يشبه ان يكون مصنعا للكتب - نسخ وتذهيب وتجليد الخ ما قال

ثم انتشرت صناعة الورق التي اخترعها العرب ثم اكتشفت المطبعة وسهل على الناس ان ينشروا آراءهم بعد ان تنبهت أفكارهم بما جلب اليهم رسل العلم الذين حملوه اليهم من أهالي اسبانيا ومن حملوه مما جاورها . ثم انساب الى العقول شيء مما سماه الاوربيون فلسفة ابن رشد . عند ذلك اهتمت المسيحية بالامر وأخذت تحارب كل مايظهر على ألسنة الناس أو يرد على اسماعهم مما يخالف ما فى الكتب المقدسة وتقاليد الكنيسة . قال دي دومنيس : ان قوس قزح ليست قوساً حربية بيد

الله ينتقم بها من عباده اذا أراد بل هي من انعكاس ضوء الشمس في نقط الماء . فجلب الى روما وحبس حتى مات ثم حوكمت جثته وكتبه فحكم عليها وألقيت فى النار . وقيل فى علة الحكم : انه أراد الصلح بين كنيستي روما وانكلترا . وأي ذنب أعظم من هذا الصلح ؟ هو أضخم بلا ريب من ذنب القول بان قوس قزح من انعكاس ضوء الشمس فى نقط الماء

مراقبة المطبوعات ومحكمة التفتيش

انشئت المراقبة على المطبوعات وحتم على كل مؤلف وكل طابع ان يعرض مؤلفه أوما يريد طبعه على القسيس أو المجلس الذي عين للمراقبة وصدرت أحكام المجمع المقدس بحرمان من يطبع شيئا لم يعرض على المراقب أوينشر شيئا لم يأذن المراقب بنشره وأوعز الى هذا المراقب أن يدقق النظر حتى لا ينشر ما فيه شيء يومىء الى مخالفة العقيدة الكاثوليكية ووضعت غرامات ثقيلة على أرباب المطابع يعاقبون بها فوق الحرمان من الكنيسة (كأن الحكومة العثمانية على ماتنشر بعض الجرائد أخذت نسخة من قرار المجمع المقدس لتجري عليه مراقبة المطبوعات ولكن للسياسة لا للدين)

انشئت محكمة التفتيش لمقاومة العلم والفلسفة عندما خيف ظهورهما بسعي تلامذة ابن رشد وتلامذة تلامذته خصوصا في جنوب فرنسا وايطاليا . انشئت هذه المحكمة الغريبة بطلب الراهب توركماندا

قامت المحكمة بأعمالها حق القيام في مدة ثماني عشرة سنة - من سنة ١٤٨١ الى سنة ١٤٩٩ - حكمت على عشرة آلاف ومئتين وعشرين شخصا بأن يحرقوا وهم أحياء فأحرقوا وعلى ستة آلاف وثمانمائة وستين بالشنق بعد التشهير فشهروا وشنقوا وعلى سبعة وتسعين ألفا وثلاثة وعشرين شخصا بعقوبات مختلفة فنفذت ثم أحرقت كل توارة بالعبرية

ماذا كانت وسائل التحقيق عند هذه المحكمة «المقدسة»؟ وسيلة واحدة هي ان يحبس المتهم وتجري عليه أنواع العذاب المختلفة بآلات التعذيب المتنوعة الى ان يعترف بما نسب اليه وعند ذلك يصدر الحكم ويعقبه التنفيذ . قرر مجمع لاتران سنة ١٥٠٢ ان يلعن كل من ينظر في فلسفة ابن رشد . وطفق الدومينكان يتخذون من ابن رشد ولعنه ولعن من ينظر في كلامه شيئا من الصناعة والعبادة لكن ذلك لم يمنع الامراء

وطلاب العلوم من كل طبقة من تلمس الوسائل للوصول الى شيء من كتبه وتحلية المقول ببعض أفكاره

اشتدت محكمة التفتيش فى طلب أولئك المجرمين طلاب العلم والساة الى كسبه ونيط بها كشف البدعة والحكم فيها مهما اشتد خفاؤها ـ في المدن . في البيوت . في السراديب . فى الانفاق . فى المخازن . فى المطابخ . فى المغارات . فى الغابات . وفى الحقول . فوفت بما كلفت به مع البهجة والسرور اللائقين بأصحاب الغيرة على الدين عملا بالقول الجليل « ماجئت لأ اتي سلاما بل سيفا »

كان يؤخذ الرهبان فى صوامعهم ، والقسوس فى كنائسهم ، والاشراف فى قصورهم ، والتجاريين بضائعهم ، والصناع فى مصانعهم ، والعامة فى بيوتهم ومزارعهم ، وحيثما وجدوا ، واينما ثقفوا ، ويوقفون أمام المحكمة وتصدر الاحكام عليهم يوم اتهامهم

قرر مجمع لاتران ان يكون من وسائل الاطلاع على أفكار الناس الاعتراف الواجب أداؤه على المذهب الكاثوليكي أمام القسيس فى الكنيسة (أي الاعتراف بالذنوب طلبا لغفرانها)

تذهب البنت أو الزوجة أو الأخت لأجل الاعتراف بين يدي القسيس يوم الاحد فيكون مما تسأل عنه عقيدة أبيها أو زوجها أو أخيها وما يبدر من لسانه في بيته وما يظهر في أعماله بين أهله . فاذا وجد القسيس متلقي الاعتراف شيئا من الشبهة في طالب العلم غير المقدس على من سأل عنه رفع أمره الى المحكمة فينقض شهاب التهمة عليه فاذا سأل عن الشاهد الذي عول عليه في اتهامه لايجاب وإنما يقام التعذيب مقام شخص الشاهد وهو من أهله حتى يعترف

اوقعت هذه المحكمة المقدسة من الرعب في قلوب أهل أوربا ماخيل لكل من يلمع في ذهنه شيء من نور الفكر اذا نظر حوله أو التفت وراءه ان رسول الشؤم يتبعه وان السلاسل والأغلال أسبق الى عنقه ويديه ، من ورود الفكرة العلمية اليه ، وقال باغلياديس ما كان يقوله جميع الناس لذلك العهد : « يقرب من المحال ان يكون الشخص مسيحيا ويموت على فراشه »

حكمت هذه المحكمة من يوم نشأتها سنة ١٤٨١ الى سنة ١٨٠٨ على ثلاثمائة وأربعين ألف نسمة منهم نحو مائتي ألف

احرقوا بالنار أحياء

﴿ اضطهاد المسيحية للمسلمين واليهود والعلماء عامة ﴾

لما كان ابن رشد هو الينبوع الذي تفجر منه ماء العلم والحرية في أوربا على زعم القسوس وكان ابن رشد استاذا يتعلم عنده كثير من اليهود وقد أتهموا بنشر افكاره وآرائه ثم هو مع ذلك مسلم صب غضب الكنيسة على اليهود والمسلمين معاً فصدر الأمر في ٣٠ مارس (آذار) سنة ١٤٩٢ بأن كل يهودي لم يقبل المعمودية فى أي سن كان وعلى أي حال كان يجب ان يترك بلاد اسبانيا قبل شهر يوليو (تموز) ومن رجع منهم الى هذه البلاد عوقب بالقتل وأبيح لهم ان يبيعوا مايملكون من عقار ومنقول بشرط ان لا ياخذوا فى الثمن ذهبا ولا فضة وإنما يأخذون الأثمان عروضا وحوالات . ومن ذا الذي يشتري اليوم بثمن ماياخذه بعد ثلاثة أشهر بلا ثمن ؟ (يعني ان أموال اليهود تكون مباحة بعد جلائهم الذي تم في يوليو).
وصدر أمر توركماندو ان لا يساعدهم أحد من سكان اسبانيا فى أمر من أمورهم . وهكذا خرج اليهود تاركين كل مايملكون ناجين بأرواحهم على انه لا نجاة لكثير منها فقد اغتالها الجوع

ومشقة السفر مع العدم والفقر

وفي فبراير (شباط) سنة ١٥٠٢ نشر الامر بطرد أعداء الله المغاربة (المسلمين) من أشبيلية وما حولها ـ من لم يقبل المعمودية منهم يترك بلاد اسبانيا قبل شهر ابريل (نيسان) وأبيح لهم ان يبيعوا ما يملكون على الشرط الذي وضع لليهود . ولكن وضع للمسلمين شرط آخر وهوان لا يذهبوا في طريق يؤدي الى بلاد اسلامية ومن خالف فجزاؤه القتل . فهؤلاء المساكين نفوا جميعا الى القتل ان لم يكن قتل الجزاء عند الرجوع فالموت ملاقيهم بالتعب مع العري والجوع

ألا يعجب القارىء اذا رأى ان برونو يحرق بالنار حيا بعد حبس طويل سنة ١٦٠٠ لأنه قال بقول الصوفية في وحدة الوجود وقال ان هذا العالم يحتوي على عوالم كثيرة . الحمد لله رب العالمين

ظهر القول بكروية الارض ـ ذلك الامر الذي عرفه المسلمون وصار رأيا لهم في أول خلافة بني العباس ولم تتحرك له شعرة في بدن ـ فأحدث اضطرابا شديدا في عالم النصرانية ولا يسع هذا المقال ماوقع من الحوادث في شأنه

هل يصدق القارىء ان ماقصده كريستوف كولمب من السفر فى المحيط الاطلانطيقي لعله يكتشف أرضا جديدة كان من الأمور التي اهتمت لها الكنيسة وحكم مجمع سلامانك بأنه مخالف لأصول الدين ثم أعيد النظر فيه وعرض على أقوال الآباء من كريزيستوم واوغستين وجيروم وغريغوار وبازيل وانبرواز وعلى رسائل الرسل والأناجيل والنبوات والزبور والأسفار الخمسة ولم ينتج هذا العرض شيئا . ولكن ساعده على ماقصد بعض الملوك رغم الكنيسة كما هو معلوم . قال كريستوف كولمب ان الذي أوحى اليه هذا القصد النبيل هي كتب ابن رشد . من هنا نفهم لم قامت له الكنيسة وقعدت .

ما أشد تمسك الكنيسة بهذا الاصل الجليل « السلطة للقسوس والطاعة على العامة » كل رأي لم يصدر عن ذلك المصدر الديني الذي يربط ويحل في الأرض والسماء فهو باطل تجب مقاومته بكل مايستطاع . لهذا حكم على غاليلي الذي ذهب الى ان حركة الكواكب هي على النظام المعروف عند الفلكيين اليوم

مقاومة الكنيسة للحقن تحت الجلد : هل تدري ماذا حصل من المقاومة لادخال الحقن تحت الجلد بمادة المرض ؟ اكتشفت هذه الطريقة الطبية عند المسلمين فى الآستانة ثم نقلها الى أوروبا امرأة تسمى ماري مونتاجو سنة ١٧٢١ فقامت قيامة القسوس وعارضوا فى استعمالها واحتيج فى تعضيدها الى التماس المساعدة من ملك انكلترا وعادت هذه الشدة في المعارضة عندما اكتشفت طريقة تطعيم الجدري

مقاومة تسهيل الولادة: أي مقاومة لم يلاقها اكتشاف تخدير المرأة عند الولادة حتى لا تحس بألم الطلق. اكتشاف أميركاني رأت حضرات القسوس فيه انه يخلص المرأة من تلك اللعنة أو تلك العقوبة التي سجلت عليها فى سفر التكوين (إذ جاء في الاصحاح الثالث منه : « وقال للمرأة تكثيراً اكثر اتعاب حملك بالوجع تلدين أولاداً »)

مقاومة السلطة المدنية وحرية الاعتقاد : نشر البابا منشوراً فى سنة ١٨٦٤ جاء فيه لعن كل من يقول بجواز خضوع الكنيسة لسلطة مدنية أو جواز ان يفسر أحد شيئاً من الكتب المقدسة على خلاف ماترى الكنيسة أو يعتقد بان الشخص حر فيما يعتقد

ويدين به ربه . وفي منشور له سنة ١٨٦٨ ان المؤمنين يجب عليهم أن يغدوا قوة الكنيسة بأرواحهم وأموالهم وعليهم أن ينزلوا لها عن آرائهم وأفكارهم ودعا الروم الارثوذكس والبروتستانت الى الخضوع للكنيسة الرومانية على هذا الوجه

في سنة ١٨٧١ كان النزاع بين حكومة بروسيا والبابا في عزل استاذ في إحدى الكليات رأى رأيا لا يروق للحزب الكاثوليكي فحرمه البابا وطلب من الحكومة عزله وكانت إحدى المعضلات السياسية غير ان عزيمة بسمارك نصرت مدنية القرن التاسع عشر على سلطان الكنيسة وأبقت الاستاذ وجعلت التعليم تحت السلطة المدنية

مقاومة الجميات العلمية والكتب : لا أذكر الجميات العلمية (الاكادميات) التي ألغيت والاجتماعات التي عطلت لا لشيء كان فيها سوى هداية البشر الى منافعهم وتنوير بصائرهم بكشف ما احتجب عنهم من سر الخليقة بالبحث النظري ومن الطريق العقلي من غير استشارة المسيطر الإلهي وهو الكنيسة. ولكن اذكر شيئا واحداً وهو ان الكردينال اكسيمنيس أحرق في غرناطه ثمانية آلاف كتاب بخط القلم فيها كثير من

ترجمة الكتب المعوّل عليها عند علماء أوروبا لذلك العهد

البروتستانت او الاصلاح

ربما يقول قائل ان هذا الذي ذكرت هو عمل الكنيسة الرومانية الكاثوليكية ولكن قد قام فى المسيحية مصلحون يرون إرجاع الدين الى أصل الكتب المقدسة ويبيحون لعامة أهل الدين ان ينظروا فيها ويفهموها وقد رفعوا تلك السيطرة عن الضمائر والعقول ومن عهد ظهور الاصلاح والرجوع إلى أصول الدين الأولى بزغت شمس العلم بالمغرب وبسط للعلم بساط التسامح وذلك لا يمكن أن يكون الا جريا مع طبيعة الدين

لا أذكر فى الجواب عن ذلك الا ما ذكر البروتستانت أنفسهم فى تاريخ الاصلاح: استمرت عقوبة الموت قانونا يحكم به على كل من يخالف معتقد الطائفة وقد أمر كلفان(١) باحراق سيرفيت فى جنيف لأنه كان يعتقد أن الدين المسيحي كان قد دخل عليه شيء من الابتداع قبل مجمع نيقه. وكان يقول: ان روح القدس ينعش الطبيعة بأسرها. فكان جزاؤه على هذا ان شوي على النار حتى مات وهكذا أحرق فاييني فى تلوز سنة ١٦٢٩

(١) كلفان هو الزعيم الثاني للبرتستانت ولوتر الأول

كان لوتير أشـد الناس انكارا على من ينظر فى فلسفة ارسطو وكان ذلك المصلح يلقب هـذا الفيلسوف بالخنزير الدنس الكذاب ونحو ذلك من الألقاب التي لا بأس بها اذا صدرت من أهـل الغيرة على الدين فى طريق الدفاع عنه !! وكان كلفان أقل شتما للفيلسوف من لوتير لكنه لم يكن أحسن ظنا به ولا أوسع صدرا لمن يطلع على شيء من كتبه. وكان علماء المسلمين يلقبون هذا الفيلسوف «المعلم الاول» فتأمل الفرق بين الفريقين !!

قالوا : البروتستانت قاموا يطالبون بالحرية فى فهم الكتب المقدسة وبإبطال السلطة على غفران الذنوب والتجارة ببيع الثواب والسعادة الاخروية وابطال عبادة الصور . ولكنهم لم يغيروا شيئا من الاعتقاد بأن الكتب المقدسة هي نبراس الهداية فى طريق العلم البشري كما انها منبع نور الإيمان بالدين الإلهي وانه لا يباح للعقل أن ينساق فى نظره الى ما يخالف شيئا مما حوته وأنه لا حاجة الى شيء من العلم وراء ما ورد فيها . وبالجملة انهم لم يبطلوا أصلا من الاصول الستة التي تقدمت إلا أنهم قالوا بمنع غلوّ الرؤساء فى سلطتهم المبنية على

الاصل الثاني في سابق قولنا .

قالوا : ولهذا لم يكن مذهب الاصلاح أخف وطأة على العلم ولا أفضل معاملة له من الكاثوليك لان كلا المذهبين يرجع الى طبيعة واحدة (وهي القائمة على الاصول الستة) ولم يكن لاهل النظر العقلي جزاء في كلا الملتين الا القتل وسفك الدم

لو كنت ممن يحب الجدال في الدين لمددت فيما ذكرته من عناصر الدين المسيحي ما تضمنه قول بعض الناقدين عند الكلام على الحروب المسيحية واضطهادات الكنيسة : « ما أهون الدم على من يمثل في عبادته أكل الدم وعلى من يعتقد أن خلاص العالم الانساني من الخطيئة انما كان بسفك الدم البريء على يد المعتدي الاثيم» لكني في بحثي هذا لا أريد أن أستعمل قوة الخيال ، ولا أن أذكر ما يعد من قبيل الجدال ، وانما آتي بما هو حكاية حال ، ليس للناظر فيها مقال .

الفصل بين السلطتين في المسيحية

بقي علينا الكلام فيما جعلته الجامعة أساسا للفصل بين السلطتين الدينية والملكية وبه كانت طبيعة الدين المسيحي أدعى الى التسامح مع العلم في نظرها . لو سلمنا أن في تلك

العبارة معنى الفصل كما قالت الجامعة وقال كثير غيرها ممن أرادوا مقاومة السلطة الدينية فماذا يفيد الفصل اذا كان دين الملك نفسه يقضي عليه بمعاداة العلم؟ أفلا يغلب اعتقاد الملك وما يملك نفسه مما فيه نجاته الروحية على مطالب الملك؟ وكم من ملك جعل مصالح مملكته قربانا لسلطان عقيدته. هب ان مصالح الملك تكون دائما أغلب على النفس من حكم العقيدة وقاهر الايمان والوجدان وقد أقام الدين سلطتين منفصلتين احداهما تحل وتربط في الارض وفي السماء فيما هو من خاصة الدين والاخرى تحل وتربط في الارض فيما هو من خصائص الدنيا. أفلا يكون هذا الفصل قاضيا بتنازع السلطتين وطلب كل واحدة منهما التغلب على الأخرى فيمن تحت رعايتهما معا؟ وهل يسهل على السلطة الدينية أن تدع رعاياها تتصرف في أبدانهم وأموالهم بل وفي عقولهم أيدي الملوك بما تقتضيه مصالح الملك الفاني اذا كان ذلك التصرف مخالفا لما جاء في كنز المعارف وهو الكتب السماوية وتأويل الرؤساء الروحيين وسننهم فاذا همت هذه السلطة بالمعارضة أفتصبر الاخرى؟ هذا هو الذى وقع في العالم المسيحي منذ ظهرت سلطة الدين

كيف يتسنى للسلطة المدنية أن تتغلب على السلطة الدينية وتقف بها عند حدها والسلطة الدينية إنما تستمد حكمها من الله ثم تمد نفوذها بتلك القوة الى أعماق قلوب الناس وتديرها كيف تشاء . والملك لا قوة له الا بأولئك الناس المغلوبين للسلطة الدينية ؟ لا يتأتى للملك أن يغالب تلك القوة الا بعد أن يتناول من الوسائل مالا يعد لاضعاف سلطتها . نعم هذا الفصل يسهل التسامح لو كانت الأبدان التي يحكمها الملك يمكنها أن تأتي أعمالها على حدة مستقلة عن الأرواح التي تحيا بها والارواح كذلك تأتي أعمالها بدون الابدان التي تحمل قواها

ثم هل هـذا هو معنى قول الانجيل ؟ القصة على ماجاء في الانجيل أن بعض المرائين أراد أن يتسقط المسيح ليأخذ عليه ما ينم به فسأله : أيجوز أن نعطي جزية لقيصر ؟ فأجاب لم تجربونني ؟ ائتوني بدينار لانظر اليه.فأتوه بدينار فقال:لمن هذه الصورة والكتابة قالوا له لقيصر فقال : أعطوا مالقيصر لقيصر وما لله لله . فمعناه الظاهر من سياق القصة أن صاحب السكة التي تتعاملون بها اذا ضرب عليكم أن تدفعوا منها شيئا فادفعوه له أما قلوبكم وعقولكم وجميع ماهو من الله وعليه

طابع صنعته فلا تعطوا منه لقيصر شيئا . والعلم ليس مما عليه طابع قيصر بل عليه طابع الله فلا يمكن أن يكون العلم تحت سلطة غير السلطة الروحانية الدينية . فأي تسامح مع العلم فى هذا؟

اعتقاد المسلمين فى المسيح والمسيحية

هذا الذي عرضناه من طبيعة الدين المسيحي وأوردناه من مشاربه فيما بعد نشأته وما وقع من حوادث أهله مع طلاب العلم ورواد المعارف في كل زمن الى مايقرب من أيامنا هذه كل ذلك مأخوذ من تاريخهم الذي كتبوه عن أنفسهم ومن نصوص كتبهم الدينية التي يتوكؤن عليها فيما ذكرنا من سيرتهم وأعمالهم

أما رأيي ورأي أهل العقيدة الصحيحة من المسلمين فى المسيح عليه السلام ودينه فهو على غير ماراآه القارىء . انا نعتقد ان المسيح روح الله وكلمته ورسوله الى بني اسرائيل بعث مصدقا لما بين يديه من التوراة وجاءهم من الدين بما فيه هدى لهم ورشاد في شؤون معاشهم ومعادهم ولم يطالبهم بتعطيل قوة من قواهم التي منحهم الله تعالى إياها بل طالبهم بشكر الله تعالى عليها ولا يشكر حق الشكر الا باستعمالها جميعها فيما

أحدها الله له . والعقل من أجل القوى بل هو قوة القوى الانسانية وعمادها والكون جميعه هو صحيفته التي ينظر فيها وكتابه الذي يتلوه وكل مايقرأ فيه فهو هداية الى الله وسبيل للوصول اليه . وكل ماصح عندنا عن السيد المسيح لايخالف شيء منه هذا الذي نعتقد . فان صح عنه شيء يكون فى ظاهره مخالفة لهذه الاصول أمكننا تأويله حتى يرجع معناه اليها أو وكلنا الامر فيه الى الله وقلنا «لا علم لنا الا ماعلمتنا» .

الدين دين الله وهو دين واحد فى الاولين والآخرين لاتختلف الا صوره ومظاهره . وأما روحه وحقيقة ماطولب به العالمون أجمعون على ألسن الانبياء والمرسلين فهو لا يتغير - إيمان بالله وحده واخلاص له فى العبادة ومعاونة الناس بعضهم لبعض فى الخير وكف أذاهم بعضهم عن بعض ماقدروا . وهذا لا ينافي الارتقاء في الدين بارتقاء عقول البشر واستعدادهم لكمال الهداية . ونعتقد ان دين الاسلام جاء ليجمع البشر كلهم على هذه الاصول ومن أهم وظائفه ازالة الخلاف الواقع بين أهل الكتاب ودعوتهم الى الاتفاق والاخاء والمودة والائتلاف وهذا ماعمل عليه المسلمون قرنا بعد قرن بحسب قوة تمسكهم بالاسلام

فاذا سأل سائل : اذا كان ذلك الذي قدمت فيما سبق هو اعتراف فضلاء الاوربيين أنفسهم في منافاة طبيعة الدين للعلم واشتداده في معاداته فما هذا الانقلاب الذي حصل في أوربا وما هـذا التسامح الذي يتمتع به العلم اليوم في أقطارها ؟ فجوابه في الكلام على الامر الرابع مما ذكرت الجامعة وهو يكون بعد عرض طبيعة الدين الاسلامي ومايليق ان يكون له مع العلم وما انجر اليه الحال بمقتضى تلك الطبيعة وما عرض عليهما مما سترها وحال بينها وبين أثرها في أخريات الايام وسنوجز القول فيه كما أوجزناه فيما مضى

القسم الثاني في الاسلام

طبيعة الاسلام مع العلم بمقتضى اصوله

(تمهيد للاصل الاول) الاسلام في الحقيقة دعوتان ـ دعوة الى الاعتقاد بوجود الله وتوحيده ودعوة الى التصديق برسالة محمد صلى الله عليه وسلم . فأما الدعوة الاولى فلم يعول فيها الا على تنبيه العقل البشري وتوجيهه الى النظر في الكون واستعمال القياس الصحيح والرجوع الى ما حواه الكون من النظام

والترتيب وتماقد الاسباب والمسببات ليصل بذلك الى أن للكون صانعا واجب الوجود عالما حكيما قادرا وان ذلك الصانع واحد لوحدة النظام فى الأكوان . وأطلق للعقل البشري ان يجري فى سبيله الذي سنته له الفطرة بدون تقييد فنبهه الى ان خلق السموات والارض واختلاف الليل والنهار وتحريك الرياح على وجه يتيسر للبشر أن يستعملها في تسخير الفلك لمنافعه وإرسال تلك الرياح لتثير السحاب فينزل من السحاب ماء فتحيا به الارض بعد موتها وتنبت ماشاءالله من النبات والشجر مما فيه رزق الحي وحفاظ حياته ـ كل ذلك من آيات الله عليه أن يتدبر فيها ليصل الى معرفته

ثم قد يزيده تنبيها بذكر أصل للكون يمكن الوصول الى شيء منه بالبحث في عوالمه فيذكر ما كان عليه الأمر فى أول خلق السموات والأرض كما جاء فى آية : «أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ» ونحوها من الآيات . وهو إطلاق لعنان العقل ليجري شوطه الذي قدر له في طريق الوصول الى ما كانت عليه الأكوان . وقد يزيد

التنبيه تأثيرا في إيقاظ العقل ما يؤيد ذلك من السنة كما جاء في خبر من سأل النبي صلى الله عليه وسلم وآله: أين كان ربنا قبل السموات والأرض فأجابه عليه السلام: « كان في عماء تحته هواء » (١) والعماء عندهم السحاب . فترى القرآن في مثل هذه المسألة الكبرى لا يقيد العقل بكتاب ، ولا يقف به عند باب ، ولا يطالبه فيه بحساب ، فليقرأ القارىء القرآن يغنني عن سرد الآيات الداعية الى النظر في آيات الكون — « أَوَلَمْ يَنظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ » . « وَآيَةٌ لَهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ » — « وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ » وأمثال ذلك . فلو أردت سرد جميعها لأتيت بأكثر من ثلث القرآن بل من نصفه في مقالي هذا .

يذكر القرآن إجمالا من آثار الله في الأكوان تحريكا للعبرة ، وتذكيرا بالنعمة ، وحفزا للفكرة ، لا تقريرا لقواعد

---

(١) رواه ابن جرير والطبراني وابو الشيخ في العظمة عن أبي رزين السائل (رض) والحديث من المتشابهات لا يعرف تأويله الا الراسخون

الطبيعة، ولا إلزاما باعتقاد خاص في الخليقة ، وهو في الاستدلال على التوحيد لم يفارق هذه السبيل ، أنظر كيف يقرع بالدليل ، « لو كانَ فيهما آلهةٌ الا اللهُ لَفَسَدَتا » « ما اتَّخذَ اللهُ من وَلدٍ وما كانَ معه من إلهٍ إذاً لَذَهَبَ كل إلهٍ بما خَلَقَ ولَعَلاَ بعضُهم عَلَى بعضٍ سبحانَ اللهِ عمَّا يَصِفُونَ »

فالاسلام في هذه الدعوة والمطالبة بالايمان بالله ووحدانيته لا يعتمد على شيء سوى الدليل العقلي ، والفكر الانساني الذي يجري على نظامه الفطري (وهو ما نسميه بالنظام الطبيعي) فلا يدهشك بخارق للعادة ، ولا يغشي بصرك بأطوار غير معتادة ، ولا يخرس لسانك بقارعة سماوية ، ولا يقطع حركة فكرك بصيحة الهية ، وقد اتفق المسلمون الا قليلا ممن لا يعتد برأيه فيهم على ان الاعتقاد بالله مقدم على الاعتقاد بالنبوات وانه لا يمكن الايمان بالرسل الا بعد الايمان بالله . فلا يصح ان يؤخذ الايمان بالله من كلام الرسل ولا من الكتب المنزلة(١)

---

(١) المنار — اي لا يؤخذ منها بالتسليم بناء على انها من الله ولا ينافي هذا ان يؤخذ الايمان بالله من كلام الرسل وكتبهم بما فيه من البرهان على ذلك لا بمجرد التسليم ولا باعتبار انهم رسل الله ثم بعد الايمان بالله وبهم يكمل ايمان المؤمن بالاخذ عنهم .

فانه لا يعقل ان تؤمن بكتاب أنزله الله الا اذا صدقت قبل ذلك بوجود الله وبأنه يجوز أن ينزل كتابا أو يرسل رسولا .

وقالوا كذلك ان أول واجب يلزم المكلف أن يأتي به هو النظر والفكر لتحصيل الاعتقاد بالله لينتقل منه الى تحصيل الايمان بالرسل وما أنزل عليهم من الكتاب والحكمة

وأما الدعوة الثانية فهي التي يحتج فيها الاسلام بخارق العادة وما أدراك ماهو الخارق للعادة الذي يعتمد عليه الاسلام، في دعوته الى التصديق برسالة النبي عليه السلام ، هذا الخارق للعادة هو الذي تواتر خبره، ولم ينقطع أثره ، هذا هو الدليل وحده وما عداه مما ورد في الأخبار سواء صح سندها أو اشتهر أو ضعف أو وهى فليس مما يوجب القطع عند المسلمين . فاذا أورد في مقام الاستدلال فهو على سبيل تقوية العقد لمن حصل أصله ، وفضل من التأكيد لمن سلمه من أهله ، ذلك الخارق المتواتر المعول عليه في الاستدلال لتحصيل اليقين هو القرآن وحده . والدليل على انه معجزة خارقة للعادة تدل على ان موحيه هو الله وحده وليس من اختراع البشر هو انه جاء على لسان أمي لم يتعلم الكتاب ولم يمارس العلوم وقد نزل على

وتيرة واحدة هاديا للضال مقوما للمعوج كافلا بنظام عام لحياة من يهتدي به من الامم منقذا لهم من خسران كانوا فيه، وهلاك كانوا أشرفوا عليه، وهو مع ذلك من بلاغة الاسلوب على مالم يرتق اليه كلام سواه حتى لقد دعي الفصحاء والبلغاء ان يعارضوه بشيء من مثله فعجزوا ولجأوا الى المجالدة بالسيوف وسفك الدماء واضطهاد المؤمنين به الى أن ألجأوهم الى الدفاع عن حقهم وكان من أمرهم ما كان من انتصار الحق على الباطل وظهور شمس الاسلام تمد عالمها بأضوائها، وتنشر أنوارها في جوانبها،

وهذا الخارق قد دعي الناس الى النظر فيه بعقولهم وطولبوا بأن يأتوا في نظرهم على آخر ماتنتهي اليه قوتهم فان وجدوا طريقا لابطال إعجازه أو كونه لا يصلح دليلا على المدعى فعليهم أن يأتوا به . قال تعالى : « وإن كنتم في ريب مما نزّلنا على عبدنا فأتوا بسورةٍ من مثله» وقال : « أفلا يتدبّرون القرآن ولَوْ كان مِن عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً » وقال غير ذلك مما هو مطالبة بمقاومة الحجة بالحجة ولم يطالبهم بمجرد التسليم على رغم من العقل

معجزة القرآن جامع من القول والعلم ، وكل منهما مما يتناوله العقل بالفهم ، فهي معجزة عرضت على العقل وعرفته القاضي فيها وأطلقت له حق النظر فى أحنائها ، ونشر ما انطوى فى اثنائها ، وله منها حظه الذي لا ينتقص. فهي معجزة أعجزت كل طوق أن يأتي بمثلها ، ولكنها دعت كل قدرة أن تتناول ماتشاء منها ، أما معجزة موت حي بلا سبب معروف للموت أو حياة ميت أو إخراج شيطان من جسم أو شفاء علة من بدن فهي مما ينقطع عنده العقل ، ويجمد لديه الفهم ، وانما يأتي بها الله على يد رسله لاسكات أقوام غلبهم الوهم، ولم تضىء عقولهم بنور العلم، وهكذا يقيم الله بقدرته من الآيات ، للامم على حسب الاستعدادات، (١)

ثم ان الاسلام لم يتخذ من خوارق العادات دليلا على الحق لغير الانبياء عليهم الصلاة والسلام ولم ترد فيه كلمة واحدة تشير الى ان الداعين اليه يمكنهم أن يغيروا شيئا من سنة الله فى الخليقة ولا حاجة الى بيان ذلك فهو أشهر من أن يحتاج الى تعريف

---

(١) راجع الصفحة ٣٧١ من مجلد المنار الرابع وانظر الكلام فى الآيات الكونية والآيات النفسية العلمية

الاصل الاول للاسلام النظر العقلي لتحصيل الايمان (١)

فأول أساس وضع عليه الاسلام هو النظر العقلي . والنظر عنده هو وسيلة الايمان الصحيح فقد أقامك معه على سبيل الحجة وقاضاك الى العقل ومن قاضاك الى حاكم فقد أذعن الى سلطته فكيف يمكنه بعد ذلك أن يجور أو يثور عليه

بلغ هـذا الاصل بالمسلمين أن قال قائلون من أهـل السنة إن الذي يستقصي جهده في الوصول الى الحق ثم لم يصـل اليه ومات طالبا غير واقف عنـد الظن فهو ناج . فأي سعة لاينظر اليها الحرج أكمل من هذه السعة

(الاصل الثاني للاسلام تقدم العقل على ظاهر الشرع عند التعارض)

أسرع اليك بذكر أصل يتبع هذا الاصل المتقدم قبل أن أنتقل الى غيره : اتفق أهل الملة الاسلامية الا قليلا ممن لاينظر اليه على انه اذا تعارض العقل والنقل أخذ بما دل عليه العقل وبقي في النقل طريقان طريق التسليم بصحة المنقول مع

---

(١) هذا الاصل ومابعده ضد الاصل الرابع من اصول النصرانية « راجع ص ٢٩ »

الاعتراف بالعجز عن فهمه ، وتفويض الامر الى الله فى علمه، والطريق الثانية تأويل النقل مع المحافظة على قوانين اللغة حتى يتفق معناه مع ما أثبته العقل . وبهـذا الأصل الذي قام على الكتاب وصحيح السنة وعمل النبي صلى الله تعالى عليه وآله وسلم مهدت بين يدي العقل كل سبيل ، وأزيلت من سبيله جميع العقبات ، واتسع له المجال الى غير حد، فماذا عساه يبلغ نظر الفيلسوف حتى يذهب الى ما هو أبعد من هذا ؟ وأي فضاء يسع أهل النظر وطلاب العلوم ان لم يسعهم هذا الفضاء ؟ ان لم يكن فى هذا متسع لهم فلا وسعتهم أرض بجبالها ووهادها ، ولا سماء بأجرامها وأبعادها ،

اصل ثالث من اصول الاحكام فى الاسلام البعد عن التكفير

هلا ذهبت من هذين الاصلين الى ما اشتهر بين المسلمين وعرف من قواعد أحكام دينهم وهو : اذا صدر قول من قائل يحتمل الكفر من مئة وجه ويحتمل الايمان من وجه واحد حمل على الايمان ولا يجوز حمله على الكفر . فهل رأيت تسامحا مع أقوال الفلاسفة والحكماء أوسع من هذا؟ وهل يليق بالحكيم أن يكون من الحمق بحيث يقول قولا لا يحتمل الايمان من وجه

واحد من مئة وجه ؟ اذا بلغ به الحمق هذا المبلغ كان الاجدر به أن يذوق حكم محكمة التفتيش البابوية ويؤخذ بيديه ورجليه فيلقى فى النار .

أصل رابع فى الاسلام الاعتبار بسنن الله فى الخلق (١)

يتبع ذلك الأصل الاول فى الاعتقاد ـ وهو أن لا يعول بعد الانبياء فى الدعوة الى الحق على غير الدليل وأن لا ينظر الى العجائب والغرائب وخوارق العادات ـ أصل آخر وضع لتقويم ملكات الأنفس القائمة على طريق الاسلام وإصلاح أعمالها فى معاشها ومعادها . ذلك هو أصل العبرة بسنة الله فيمن مضى ومن حضر من البشر وفي آثار سيرهم فيهم . فما جاء فى الكتاب العزيز مقررا لهذا الأصل « قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُم سُنَن فَسِيرُوا فى الأرضِ فانظروا كيف كان عاقبةُ المكذبين ـ سُنَّةَ مَنْ قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنَا ولا تَجدُ لِسُنَّتِنَا تَحويلاً ـ فهل يَنْظُرُونَ إلاّ سُنَّةَ الأَوَّلِينَ فَلن تَجدَ لِسُنَّةِ الله تَبْدِيلاً وَلن تجد لِسنَّةِ اللهِ تَحْوِيلاً ـ أوَلَم يسيروا فى الارض فينظروا كيف كان عاقبةُ الذين من قبلهم» الخ

(١) هذا الاصل ضد الاصل الاول للنصرانية « راجع ٢٤ »

في هذا يصرح الكتاب بأن لله في الأمم والأكوان سننا لا تتبدل والسنن الطرائق الثابتة التي تجري عليها الشؤون وعلى حسبها تكون الآثار وهي التي تسمى شرائع أو نواميس ويعبر عنها قوم بالقوانين . مالنا ولاختلاف العبارات . الذي ينادي به الكتاب ان نظام الجمعية البشرية وما يحدث فيها هو نظام واحد لا يتغير ولا يتبدل وعلى من يطلب السعادة في هذا الاجتماع أن ينظر في أصول هذا النظام حتى يرد اليها أعماله ويبني عليها سيرته وما يأخذ به نفسه . فان غفل عن ذلك غافل فلا ينتظرن الا الشقاء وان ارتفع الى الصالحين نسبه ، أو اتصل بالمقربين سببه ، فمهما بحث الناظر وفكر ، وكشف وقرر ، وأتى لنا بأحكام تلك السنن ، فهو يجري مع طبيعة الدين ، وطبيعة الدين لا تتجافى عنه ، ولا تنفر منه ، فلم لا يعظم تسامحها معه ؟

جاء الاسلام لمحو الوثنية عربية كانت أو يونانية أو رومانية أو غيرها في أي لباس وجدت ، وفي أي صورة ظهرت ، وتحت أي اسم عرفت ، ولكن كتابه عربي والعربية لغة أولئك الوثنيين ، أعدائه الاقربين ، وفهم معناه موقوف على معرفة أوضاع اللسان ولا تعرف أوضاعه حتى تعرف مواضع استعمال

كلمه وأساليبه، وان يكون ذلك الا بحفظ ما نطق به العرب من منظوم ومنثور وفيه من آدابهم وعاداتهم واعتقاداتهم مايعيد عند الناظر فى كلامهم صورة كاملة من جاهليتهم ومافيها من الوثنية وأطوارها . هكذا صنع المسلمون الاولون ـ ركبوا الاسفار، وانفقوا الاعمار، وبذلوا الدرهم والدينار، فى جمع كلام العرب وحفظه وتدوينه وتفسيره توسلا بذلك الى فهم كتابهم المنزل فكانوا يعدون ذلك ضربا من ضروب العبادة، يرجون من الله فيه حسن المثوبة، فكان من طبيعة الدين أن لا يحتقر العلم للدين الذي ولد هو فيه . بل قد يكون من الدين علم ماليس منه متى حسنت النية فى تناوله . وهذا باب من التسامح لا يقدر سعته الا أهل العلم به اما المسيحيون الاولون فقد هجروا لسان المسيح عليه السلام سريانيا كان أو عبرانيا وكتبوا الأناجيل باللغة اليونانية ولم يكتب فى العبرية الا انجيل متى فيما يقال . ألا ترى ان اسم الانجيل نفسه يوناني؟ كل ذلك كراهة لليهود الذين كان ينطق المسيح بلسانهم ويعظهم بلغتهم . وتحرجا من النظر في دواوين آدابهم وما توارثوا من عاداتهم

❧

﴿ الاصل الخامس للاسلام قلب السلطة الدينية ﴾ «١»

أصل من أصول الاسلام انتقل اليه وما أجله من أصل ـ قلب السلطة الدينية والاتيان عليها من أساسها. هدم الاسلام بناء تلك السلطة ومحا أثرها حتى لم يبق لها عند الجمهور من أهله اسم ولا رسم. لم يدع الاسلام لاحد بعد الله ورسوله سلطانا على عقيدة أحد ولا سيطرة على ايمانه (على ان الرسول عليه السلام كان مبلغا ومذكرا، لا مهيمنا ومسيطرا، قال تعالى « فذكّر إنّما انت مذكّرٌ لَستَ عَلَيهِم بمُسيطر ») ولم يجعل لأحد من أهله أن يحل ولا أن يربط لا في الارض ولا فى السماء . بل الايمان يعتق المؤمن من كل رقيب عليه فيما بينه وبين الله سوى الله وحده، ويرفع عنه كل رق الا العبودية لله وحده، وليس لمسلم مهما علا كعبه فى الاسلام على آخر مهما انحطت منزلته فيه الاحق النصيحة والارشاد . قال تعالى فى وصف الناجين: « وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ » وقال : «وَلْتَكُنْ مِنكُم أُمَّةٌ يَدْعُونَ إلى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَر

---

(١) هذا الاصل هو ضد الاصل الثاني من أصول النصرانية راجع صحفة ٣٦

وأولئكَ همُ المفلحونَ » وقال : « فلولا نفرَ مِنْ كلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ» فالمسلمون يتناصحون ثم هم يقيمون أمة تدعو الى الخير وهم المراقبون عليها يردونها الى السبيل السوي اذا انحرفت عنه . وتلك الامة ليس لها فيهم الا الدعوة والتذكير، والانذار والتحذير ، ولا يجوز لها ولا لاحد من الناس أن يتتبع عورة أحد . ولا يسوغ لقوي ولا لضعيف أن يتجسس على عقيدة أحد . وليس يجب على مسلم أن يأخذ عقيدته أو يتلقى أصول ما يعمل به عن أحد الا عن كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم: لكل مسلم ان يفهم عن الله من كتاب الله وعن رسوله من كلام رسوله بدون توسط أحد من سلف ولا خلف . وانما يجب عليه قبل ذلك أن يحصل من وسائله ما يؤهله للفهم كقواعد اللغة العربية وآدابها وأساليبها وأحوال العرب خاصة في زمان البعثة وما كان الناس عليه زمن النبي صلى الله عليه وسلم وما وقع من الحوادث وقت نزول الوحي وشيء من الناسخ والمنسوخ من الآثار . فان لم تسمح له حاله بالوصول الى ما يعده لفهم الصواب من السنة والكتاب فليس عليه إلا أن يسأل العارفين

بهما . وله بل عليه أن يطالب المجيب بالدليل على ما يجيب به سواء كان السؤال فى أمر الاعتقاد أو فى حكم عمل من الاعمال فليس في الاسلام ما يسمى عند قوم بالسلطة الدينية بوجه من الوجوه

السلطان فى الاسلام

لكن الاسلام دين وشرع فقد وضع حدودا ورسم حقوقا . وليس كل معتقد فى ظاهر أمره بحكم يجري عليه فى عمله . فقد يغلب الهوى . وتتحكم الشهوة . فيغمط الحق . أو يتعدى المعتدي الحد . فلا تكمل الحكمة من تشريع الاحكام الا اذا وجدت قوة لاقامة الحدود . وتنفيذ حكم القاضي بالحق . وصون نظام الجماعة . وتلك القوة لا يجوز أن تكون فوضى فى عدد كثير فلا بد أن تكون فى واحد وهو السلطان أو الخليفة

الخليفة عند المسلمين ليس بالمعصوم . ولا هو مهبط الوحي . ولا من حقه الاستئثار بتفسير الكتاب والسنة . نعم شرط فيه أن يكون مجتهدا أي أن يكون من العلم باللغة العربية وما معها مما تقدم ذكره بحيث يتيسر له أن يفهم من الكتاب والسنة ما يحتاج اليه من الاحكام حتى يتمكن بنفسه من التمييز

بين الحق والباطل ، والصحيح والفاسد ، ويسهل عليه إقامة العدل الذي يطالبه به الدين والامة معا .

هو على هـذا ـ لا يخصه الدين في فهم الكتاب والعلم بالاحكام بمزية ، ولا يرتفع به الى منزلة، بل هو وسائر طلاب الفهم سواء ، إنما يتفاضلون بصفاء العقل ، وكثرة الاصابة في الحكم ، (١) ثم هو مطاع مادام على المحجة، ونهج الكتاب والسنة ، والمسلمون له بالمرصاد فاذا انحرف عن النهج أقاموه عليه ، واذا اعوج قوموه بالنصيحة والإعذار اليه ، (٢) « لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق » (٣) فاذا فارق الكتاب والسنة فى عمله ، وجب عليهم ان يستبدلوا به غيره ، مالم يكن فى استبداله مفسدة تفوق المصلحة فيه . (٤) فالامة أونائب الامة هو الذي

---

(١) المنار — من شواهد ذلك ارتفاع قدر العلماء على الخلفاء الذين قصروا عنهم في الفهم والعلم . الم يأتك نبأ الامام مالك مع الخليفة هرون الرشيد (رحمهما الله) وكيف انزل الامام الخليفة عن المنصة واقعده مع العامة عنـد القاء الدرس لانه فى رتبة المستفيد (٢) من شواهد ذلك قول الخليفة الاول رضي الله عنه فى خطبته (وان زغت فقوموني) راجع ٧٣٤ من مجلد المنار الرابع (٣) حديث رواه البخاري ومسلم وغيرهما (راجع ٧٣٢ من مجلد المنار الرابع) (٤) مثال ذلك ان يكون له عصبية

ينصبه ، والأمة هي صاحبة الحق في السيطرة عليه ، وهي التي تخلعه متى رأت ذلك من مصلحتها ، فهو حاكم مدنيٌّ من جميع الوجوه .

ولا يجوز لصحيح النظر ان يخلط الخليفة عند المسلمين بما يسميه الافرنج (تِيُوكراتِيك) أي سلطان إلهي . فان ذلك عندهم هو الذي ينفرد بتلقي الشريعة عن الله وله حق الأثرة بالتشريع ، وله في رقاب الناس حق الطاعة لا بالبيعة وما تقتضيه من العدل وحماية الحوزة بل بمقتضى الايمان فليس للمؤمن مادام مؤمنا ان يخالفه وان اعتقد انه عدو لدين الله ، وشهدت عيناه من أعماله مالا ينطبق على مايعرفه من شرائعه ، لان عمل صاحب السلطان الديني وقوله في أي مظهر ظهرا هما دينٌ وشرع . هكذا كانت سلطة الكنيسة في القرون الوسطى . ولا تزال الكنيسة تدعي الحق في هذه السلطة كما سبقت الاشارة اليه

كان من أعمال التمدن الحديث الفصل بين السلطة الدينية والسلطة المدنية فترك للكنيسة حق السيطرة على الاعتقاد والأعمال فيما هو من معاملة العبد لربه . تشرع وتنسخ ماتشاء ،

اقوى من الامة يخشى ان يبيدها باياء درء المفاسد مقدم على جلب المصالح ،

وتراقب ونحاسب كما تشاء ، وتحرم وتعطي كما تريد ، وخوّل السلطة المدنية حق التشريع فى معاملات الناس بعضهم لبعض . وحق السيطرة على مايحفظ نظام اجتماعهم ، فى معاشهم لا في معادهم ، وعدوا هذا الفصل منبعا للخير الاعم عندهم . ثم هم يهمون فيما يرمون به الاسلام من أنه يحتم قرن السلطتين فى شخص واحد . ويظنون ان معنى ذلك فى رأي المسلم ان السلطان هو مقرر الدين وهو واضع أحكامه وهو منفذها والايمان آلة في يده يتصرف بها فى القلوب بالاخضاع ، وفى العقول بالاقناع ، وماالعقل والوجدان عنده الا متاع ، ويبنون على ذلك ان المسلم مستعبد لسلطانه بدينه . وقدعهدوا ان سلطان الدين عندهم كان يحارب العلم ، ويحمي حقيقة الجهل ، فلا يتيسر للدين الاسلامي أن يأخذ بالتسامح مع العلم مادام من أصوله أن إقامة السلطان واجبة بمقتضى الدين . وقد تبين لك ان هذا كله خطأ محض وبُعدٌ عن فهم معنى ذلك الاصل من أصول الاسلام . وعلمت أن ليس فى الاسلام سلطة دينية سوى سلطة الموعظة الحسنة ، والدعوة الى الخير ، والتنفير عن الشر ، وهي سلطة خوّلها الله لادنى المسلمين يقرع بها أنف أعلاهم ، كما خولها

لاعلاهم يتناول بها من أدناهم، ومن هنا تعلم «الجامعة» ان مسألة السلطان فى دين الاسلام ليست مما يضيق به صدره ، وتحرج به نفسه عن احتمال العلم ، وقد تقدم مايشير الى ما صنع الخلفاء العباسيون والامويون الاندلسيون من صنائع المعروف مع العلم والعلماء : وربما أتينا على شيء آخر منه فيما بعد

يقولون : ان لم يكن للخليفة ذلك السلطان الديني أفلا يكون للقاضي أو المفتي أو شيخ الاسلام ، وأقول : ان الاسلام لم يجعل لهؤلاء أدنى سلطة على العقائد وتقرير الاحكام ، وكل سلطة تناولها واحد من هؤلاء فهي سلطة مدنية قررها الشرع الاسلامي ، ولا يسوغ لواحد منهم أن يدعي حق السيطرة على إيمان أحد أو عبادته لربه أو ينازعه في طريق نظره

الاصل السادس للاسلام حماية الدعوة لمنع الفتنة

قالوا : إن الدين الاسلامي دين جهادي شرع فى القتال ولم يكن شرع فى الدين المسيحي ففي طبيعة الدين روح الشدة على من يخالفه وليس فيها ذلك الصبر والاحتمال اللذان تقضي بهما شريعة المسالمة وهي الشريعة التي وردت فيه كثير من الوصايا المسيحية «من ضربك على خدك الايسر فادر له خدك

الأيمن من سخرك ميلا فسر معه ميلين » ونحو ذلك ، حتى لقد طلبت فيها محبة الاعداء وإن كانت محبة العدو مما لا يدخل تحت الاختيار بل ولا محبة الصديق وانما الاختياري العدل بين الاعداء والاولياء . لكن في ملكوت الله كل شيء مستطاع ولا شيء فيه بمستحيل . قلنا : لكن انظروا هل دفع الشر بالشر عند القدرة عليه وعند عدم التمكن من سواه خاص بالدين الاسلامي أو هو في طبيعة كل قادر يُنذِرُ الي خصمه ؟.

ليس القتال في طبيعة الاسلام بل في طبيعته العفو والمسامحة : « خُذِ العَفْوَ وَأْمُرْ بِالعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الجَاهِلِينَ » ولكن القتال فيه لرد اعتداء المعتدين على الحق وأهله الى أن يأمن شرهم ويضمن السلامة من غوائلهم، ولم يكن ذلك للاكراه على الدين ولا للانتقام من مخالفيه، ولهذا لا تسمع في تاريخ الفتوح الاسلامية ما تسمعه في الحروب المسيحية ، عند ما اقتدر أصحاب «شريعة المسالمة » على محاربة غيرهم من قتل الشيوخ والنساء والاطفال.

لم تقع حرب إسلامية بقصد الإبادة كما وقع كثير من الحروب بهذ القصد بأيدي المسيحيين . وانما كان الصبر والمسالمة دينا عند ما كانت القدرة والقوة تعوزان الدين . وغاية مايقال

إن العناية الإلهية منحت الاسلام في الزمن القصير من القوة على مدافعة أعدائه مالم تمنحه لغيره فى الزمن الطويل· فتيسر له فى شبيبته مالم يتيسر لغيره الا فى كهولته أوشيخوخته·

مقابلة بين الاسلام الحربي والمسيحية السلمية

الاسلام الحربي كان يكتفي من الفتح بادخال الارض المفتوحة تحت سلطانه ثم يترك الناس وماكانوا عليه من الدين يؤدون مايجب عليهم فى اعتقادهم كما شاء ذلك الاعتقاد . وإنما يكلفهم بجزية يدفعونها لتكون عونا على صيانتهم والمحافظة على أمنهم في ديارهم وهم فى عقائدهم ومعابدهم وعاداتهم بعد ذلك أحرار لايضايقون فى عمل ولا يضامون فى معاملة ·خلفاء المسلمين كانوا يوصون قوادهم باحترام العباد الذين انقطعوا عن العامة فى الصوامع والاديار لمجرد العبادة كما كانوا يوصونهم باحترام دماء النساء والاطفال ، وكل من لم يعن على القتال ، جاءت السنة المتواترة بالنهي عن إيذاء أهل الذمة وبتقرير مالهم من الحقوق على المسلمين (لهم مالنا وعليهم ما علينا) و (من آذى ذميا فليس منا) واستمر العمل على ذلك مااستمرت قوة الاسلام· ولست

أبالي اذا انحرف بعض المسلمين عن هذه الاحكام، عند ما بدأ الضعف في الاسلام، - وضيق الصدر من طبع الضعيف - فذلك مما لا يلصق بطبيعته، ويخالط بطينته،

المسيحية السلمية كانت ترى لها حق القيام على كل دين يدخل تحت سلطانها تراقب أعمال أهله وتخصصهم دون الناس بضروب من المعاملة لا يحتملها الصبر مهما عظم. حتى اذا تمت لها القدرة على طردهم بعد العجز عن إخراجهم من دينهم وتمييدهم أجلاهم عن ديارهم، وغسلت الديار من آثارهم كما حصل ويحصل في كل أرض استولت عليها أمة مسيحية استيلاء حقيقيا. لا يمنع غير المسيحي من تعدي المسيحي الا كثرة العدد، أو شدة العضد، كما شاهد التاريخ وكما يشهد كاتبوه. ذلك كله لأنه ماجاء ليلقي سلاما بل سيفا ولانه جاء ليفرق بين البنت وأمها والابن وأبيه(١) والاسلام يقول كتابه في شأن الوالدين: «وإن جاهداك على أن تشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما

---

(١) تقدم نص إنجيل متى في هذا ومثله قول انجيل لوقا ١٤ — ٢٥و٢٦ (وقال لهم (يسوع) ان كان أحد يأتي الي ولا يبغض أباه وأمه وامرأته وأولاده واخوته واخواته حتى نفسه أيضا فلا يقدران يكون

وصاحبهما في الدنيا معروفا واتبع سبيل من أناب إليّ » نهو في اشتداده على المهدين لامته لا يقضي بالفرقة بين أب وابن ولا

لي تلميذاً) • وفي الباب ١٩ من هذا الانجيل مانصه (٢٧ اما اعدائي أولئك الذين لم يريدوا أن أملك عليهم فأتوا بهم الى هنا واذبحوهم قدامي) •
وأما اسفار التوراة فقد جاء فيها نحو ذلك في القسوة على الاهلين المخالفين وعلى سائر المحاربين • قال في ١٣: ٩ من تثنية الاشتراع (واذا أغواك سراً اخوك ابن امك أو ابنك أو ابنتك أو امرأة حضنك أو صاحبك الذي مثل نفسك قائلا نذهب ونعبد آلهة أخرى لم تعرفها أنت ولا آباؤك من آلهة الشعوب القريبين منك أو البعيدين عنك من أقصاء الأرض الى أقصائها فلا ترض منه ولا تسمع له ولا تشفق عينك عليه ولا ترق له ولا تستره بل قتلا تقتله : الخ)

وفي سفره التثنية أيضا (٢٠ : ١٠ – ١٦) مانصه (حين تقرب من مدينة لتحاربها الى الصلح فان اجابتك الى الصلح وفتحت لك فكل الشعب الموجود فيها يكون لك للتسخير ويستعبد لك • وان لم تسالمك بل عملت معك حربا فحاصرها واذا دفعها الرب إلهك الى يدك فاضرب جميع ذكورها بحد السيف وأما النساء والاطفال والبهائم وكل مافي المدينه كل غنيمتها فتغتنمها لنفسك وتاكل غنيمة أعدائك الذي أعطاك الرب إلهك • وهكذا تفعل بجميع المدن البعيدة جداً منك التي ليست من مدن هؤلاء الامم هنا . وأما مدن هؤلاء الشعوب التي يعطيك الرب إلهك نصيبا فلا تستبق منهم نسمة ما)

بين ام وبنت · بل يأمر الاولاد المؤمنين ان يصحبوا آباءهم المشركين بالمعروف فى الدنيا مع محافظتهم على دينهم

فأنت ترى الاسلام من جهة يكتفي من الامم والطوائف التي يغلب على أرضها بشيء من المال أقل مما كانوا يؤدونه من قبل تغلبه عليهم وبأن يعيشوا فى هدوء لا يعكرون معه صفو الدولة ولا يخلون بنظام السلطة العامة. ثم يرخي لهم بعد ذلك عنان الاختيار فى شؤونهم الخاصة بهم لا رقيب عليهم فيها الا ضمائرهم · ومن جهة أخرى ينهى أفراد المؤمنين عن مقاطعة ذوي قرباهم من المشركين ويطالبهم بحسن معاملتهم · ففي طبيعته أن يكل أمر الناس فى سرائرهم الى ربهم ، وفى طبيعته ان يجير من لا يعتقد عقيدته ، ويحمي من لا يتبع سنته ، وان كان فى عمى من الجهالة، وخبل من الضلالة ، أفترى انه يصعب عليه بعد ذلك ان يحتمل العلم والعلماء ويضيق به حلمه عن صنع الجميل بالفضل والفضلاء ، ممن ينفق عمره فى تقرير حقيقة ، أو كشف غامض أو تبيين طريقة . ؛ كلا ثم كلا . فمن بحث ونقب ، وسبر ونقر ، أو شق الأرض ، أو ارتقى الى السماء ، فهو فى أمن من أن يعرض الاسلام له فى شيء من عمله الا ان يحدث شغبا ، أو يفسد

أدبا ، فعند ذلك تمتد يد الملك لرد كيد الكائد ، وإصلاح الفاسد ، بسماح من الدين

الأصل السابع للاسلام مودة المخالفين في العقيدة (١)

المصاهرة — أباح الاسلام للمسلم أن يتزوج الكتابية نصرانية كانت أو يهودية وجعل من حقوق الزوجة الكتابية على زوجها المسلم أن تتمتع بالبقاء على عقيدتها، والقيام بفروض عبادتها، والذهاب الى كنيستها أو بيعتها ، وهي منه بمنزلة البعض من الكل ، وألزم له من الظل ، وصاحبته في العز والذل، والترحال والحل ، بهجة قلبه ، وريحانة نفسه ، وأميرة بيته ، وأم بناته وبنيه، تتصرف فيهم كما تتصرف فيه، لم يفرق الدين في حقوق الزوجية بين الزوجة المسلمة والزوجة الكتابية ، ولم تخرج الزوجة الكتابية باختلافها في العقيدة مع زوجها من حكم قوله تعالى : « وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ » فلها حظها من المودة ، ونصيبها من الرحمة، وهي

---

(١) هذا الأصل الاسلامي هو ضد الأصل السادس للنصرانية (راجع ٣١)

كما هي ، وهو يسكن اليها كما تسكن اليه ، وهو لباس لها كما أنها لباس له أين أنت من صلة المصاهرة التي تحدث بين أقارب الزوج وأقارب الزوجة وما يكون بين الفريقين من الموالاة والمناصرة على ما عهد في طبيعة البشر وما أجلى مايظهر من ذلك بين الأولاد وأخوالهم ، وذوي القربى لو لدتهم ، أيغيب عنك مايستحكم من ربط الألفة بين المسلم وغير المسلم بأمثال هذا التسامح الذي لم يعهد عند من سبق ولا فيمن لحق من أهل الدينين السابقين عليه (١)

ولا يخفى على صحيح النظر ان تقرير التسامح على هذا الوجه في نشأة الدين مما يعود القلوب على الشعور بأن الدين

(١) المنار – يقول بعض النصارى : اذا كان الاسلام أباح للمسلم أن يتزوج بالكتابية ليعلم البشر التآلف والتعاطف مع التباين في العقيدة والتخالف ، فلماذا لم يسمح للكتابي أن يتزوج بالمسلمة لهذا الغرض؟ والجواب أن الرجال قوامون على النساء لانهم أقوى منهن فليس من العدل ولا من الرحمة أن يسمح لقوي يفرق دينه بينه وبين زوجته الضعيفة ويأمره بغضها وبغض أولاده والديه اذا خالفوا عقيدته أن يتزوج بامرأة مخالفة ، أباح الاسلام ذلك لمن يعمل بما أمر من العدل والرحمة وهو المسلم

معاملة بين العبد وربه ، والعقيدة طور من أطوار القلوب ، يجب أن يكون أمرها بيد علام الغيوب ، فهو الذي يحاسب عليها ، أما المخلوق فلا تطول يده اليها ، وغاية ما يكون من العارف بالحق أن ينبه الغافل ، ويعلم الجاهل ، وينصح للغاوي ، ويرشد الضال ، لا يكفر فى ذلك نعمة المشير ، ولا يسلك به مسالك التعسير ، ولا يقطع أمل النصير ، ولا يخالف سنة الوفاء ، ولا يحيد عن شرائع الصدق فى الولاء ،

ماذا ترى فى الزوجة الكتابية لو كانت من أهل النظر العقلي وذهبت مذهبا يخالف مذهب زوجها . أفينقص ذلك من مودته لها ، أو يضعف من شعور الرحمة التي أفاضها الله بينه وبينها ، فاذا كان المسلم يتعود الاحتمال بل يتعود المحبة والنصرة لمن يخالفه فى عقيدته ، ودينه وملته ، ويألف مخالطته وعشرته ، وولايته ونصرته ، أتراه لا يحتمل أن يرى بجواره من يعمل نظره فى نظام الخليقة ليصل منه الى اكتشاف سر أو تقرير أصل فى علم أو قاعدة لصناعة إن كان قد يخالف ظاهرا مما يعتقد ، أو يميل الى رأي غير الذي يجد ، أفلا يسع هذا ما يسع الجاهر بالخلاف ، وهو معه على ما رأيت من الائتلاف ؟؟

لو ذهبت أعد ما في طبيعة الاسلام من عناصر وأركان كلها تؤلف مزاج الكرم ، وتكوّن حقيقة المسامحة مع العلم ، لاطلت على القارئ أكثر مما اطلت . ولهذا أرى من الواجب عليّ ان أختم القول بذكر أصل أشرت اليه ولا غنى لما نحن فيه من ذكره

﴿الاصل الثامن للاسلام الجمع بين مصالح الدنيا والآخرة﴾ (١)

الصحة — الحياة في الاسلام مقدمة على الدين . أوامر الحنيفية السمحة ان كانت تختطف العبد الى ربه ، وتملأ قلبه من رهبه ، وتفعم أمله من رغبه ؛ فهي مع ذلك لا تأخذه عن كسبه ، ولا تحرمه من التمتع به ، ولا توجب عليه تقشف الزهادة ، ولا تجشمه في ترك اللذات ما فوق العادة ،

صاحب هذا الدين صلى الله عليه وسلم لم يقل « بع ما تملك واتبعني » ولكن قال لمن استشاره فيما يتصدق به من ماله « الثلث والثلث كثير انك ان تذر ورثتك أغنياء خير من ان تدعهم عالة يتكففون الناس » (٢)

---

(١) هذا الاصل ضد الاصل ٣ للنصرانية (راجع ص ٢٧)

(٢) المنار — يشير الكاتب الى حديث سعد بن أبي وقاص رضي

الرخص — فرض الصوم على المؤمنين لكن اذا خشي منه المرض أوزيادته أوزادت المشقة فيه جاز تركه بل قد يجب اذا غلب على الظن الضرر فيه . الوضوء والغسل من شروط الصحة للصلاة الا اذا خشي منه الضرر أو عرضت مشقة في تحصيل الماء . القيام مما لا تصح الصلاة الا به الا اذا أصابت المصلي مشقة فيه فيسقط ويصلي قاعدا . السعي الى الجمعة واجب الا اذا كان وحل غزير أو مطر كثير أومايوجب تعبا ومشقة فيسقط . وهكذا تجد القاعدة قد عمت: « صحة الابدان مقدمة على صحة الأديان » فترى الدين قد راعى فى أحكامه سلامة البدن كما أوجب العناية بسلامة الروح

الزينة والطيبات — أباح الاسلام لاهله التجمل بأنواع الزينة والتوسع فى التمتع بالمشتهيات على شريطة القصد والاعتدال

الله عنه وقد رواه البخاري ومسلم وأصحاب السنن الاربعة . كان سعد مريضا في حجة الوداع فعاده النبي صلى الله عليه وسلم وكان عازماً على الصدقة بثلثي ماله وفى رواية بماله كله فسأله النبي عما ترك لولده فقال هم أغنياء . وفي رواية الجماعة انه لم يكن له الا ابنت . وفي رواية أحمد والنسائي انه أمره أولا بأن يتصدق بالعشر . والحاصل انه مازال يراجعه حتى رضي صلى الله عليه وسلم بالثلث وحرم الزيادة بالحديث

وحسن النية ، والوقوف عند الحدود الشرعية ، والمحافظة على صفات الرجولية ، جاء في الكتاب العزيز « يَابَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ . قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ ؟ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ . قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَاظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالاثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللهِ مَالَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللهِ مالا تعلمون » (سورة الاعراف)

ثم عد الله النعيم والجمال والزينة من نعمه علينا التي يذكرنا بها فضله ، ويهيج بها نفوسنا لذكره وشكره ، كما قال : « وَالأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ . وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَى بَلَدٍ لَمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلا بِشِقِّ الأَنْفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَؤُوفٌ رَحِيمٌ . وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً

وَيَخلُقُ مالا تَعلَمُونَ» ثم قال : «وهو الذي سَخّرَ البحرَ لِتأكُلُوا مِنه لحمًا طريًّا وتَستخرِجُوا مِنهُ حِليَةً تَلبَسُونَها وترَى الفُلكَ مَواخِرَ فِيهِ ولِتَبتَغُوا مِن فَضلِهِ وَلَعَلَّكُم تَشكُرُون»

(سورة النحل)

الاقتصاد — ووضع قانونا للانفاق وحفظ المال في قوله: «إنَّ المُبَذِّرِينَ كانوا إخوانَ الشَّياطِينِ وَكانَ الشَّيطَانُ لِربِّهِ كَفُورًا . وَلا تَجعَلْ يدكَ مَغلُولَةً الى عُنُقِكَ ولا تَبسُطها كُلَّ البَسطِ فَتَقعُدَ مَلومًا مَحسُورًا» (سورة الاسراء)

النهي عن الغلو في الدين — وخشي على المؤمن ان يَغلُوَ في طلب الآخرة فيهلك دنياه ويَنسَى نفسه منها فذكر نا بما قصه علينا أن الآخرة يمكن نيلها مع التمتع بنعم الله علينا في الدنيا اذ قال : «وابتَغِ فِيما آتاكَ اللهُ الدّارَ الآخِرةَ ولا تنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنيَا وأَحسِنْ كما أَحسَنَ الله اليك ولا تَبغِ الفسادَ في الأرض إنَّ اللهَ لا يُحِبُّ المُفسِدِين» (سورة القصص)

فترى ان الاسلام لم يبخس الحواس حقها ، كما انه هيأ الروح لبلوغ كمالها ، فهو الذي جمع للانسان أجزاء حقيقته

واعتبره حيوانا ناطقا لاجسمانيا صرفا ، ولا ملكوتيا بحتا ، جعله من أهل الدنيا كما هو من أهل الآخرة ، واستبقاه من أهل هذا العالم الجسداني ، كما دعاه الى ان يطلب مقامه الروحاني ، أليس يكون بذلك وبما بينه في قوله : « هو الذي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الأَرْض جميعاً » قد أطلق القيد عن قواه ، لتصل من رفه الحياة (مع القصد) الى منتهاه ، والنفوس مطبوعة على التنافس قد غرز فيها حب التسابق فيما تعتقده خيرا ، أو تجده لذيذا أو تظنه نافعا

وليس في الغريزة الانسانية ان يقف بها الطلب عند حد محدود ، اوينتهي بهاالسعي الى غاية لا مُطَّلَعَ للرغبة وراءها بل خصها الله بالمكنة من الرقيّ في أطوار الكمال من جميع وجوهه الى ماشاء الله ان ترقى بدون حد معروف .

(نتيجة) — فاذا جمع سائق الانفس ومُزْجيها، ومرشدها وهاديها، بين شاحذين شاحذ التمتع بمتاع الحياة الدنيا، وشاحِذِ الرغبة في النعيم الدائم في الاخرة ، فقد جمع لها كل مايسمو بها عن الرضاء في الدنيا بالدون ، وفي الآخرة بعذاب الهون، فترى كل نفس تمضي مع استعدادها ، بشهامة فؤادها ، مضاء

الزميع (١) لا تخشى العثرة بالوعيد ، ولا تقعد عن مطالبها قِعدة الرِّعديد (٢) فتطلب منافعها ، من هـذا الكون الذي وجدت فيه ووجد لها ، فتسير فى مناكب الارض ، ولا تكتفي عن الكل بالبعض ، وتبحث في تربتها ، ولا يقف بها ظاهرها عن باطنها ، ولا يحجبها ظهرها ، عن مدِّ يدها الى مافي جوفها ، ولا تجـد مايصدها عن النظر في الهواء ، والبحث في الماء ، والاهتداء بنجوم السماء ، بعد معرفة مواقعها ، وحركاتها في مداراتها ، واستقامتها وانحرافها ، وظهورها وخنوسها ، وبالجملة فكل مستعد لوجه من وجوه النظر ، أو الولوج في باب من أبواب العـلم ، ينطلق الى حيث يبلغ به استعداده إما للنجاة من ضرورة ، وإما لاستتمام منفعة أو استكمال لذة ، لا يجد من نواهي الدين مايصدّه عن مطلب ، ولا مايكف يده عن تناول رغيبة ، أين هذا من ذلك الذي لا يرى الخلاص الا في مجافاة هـذا العالم ولذائذه ويجد ان الغنى والثروة من الحجب التي لا تخرق تحول بينه وبين ملكوت السموات

---

(١) هو الحازم القوي العزيمة يزمع على الامر فيمضي فيه ولا يثني والجيـد الرأي المقدام (٢) الرعديد الجبان الكثير الارتعاد

كيف يتسنى للمسلم أن يشكر الله حق شكره ، اذا لم يضع العالم بأسره تحت نظر فكره ، لينفذ من ظاهره الى سرّه، ويقف على قوانينه وشرائعه ، ويستخدم كل ما يصلح لخدمته في توفير منافعه، كيف يشكر الله اذا توانى في ذلك وقد أرشده الله في كتابه وبسنة نبيه الى أن عالمه إنما خلق لاجله، وقد وضعه الله تحت تصرف عقله ، انظر الى لطف الاشارة في الآية المتقدمة «قل من حرّم زينة الله » الخ حيث قال : « كذلك نفصل الايات لقوم يعلمون » فأهل العلم هم الذين يعرفون مقدار نعم الله تعالى فيما يرفه به معيشتهم ، ويُجمِّل به هيأتهم ، ويجلي به زينتهم ،

المسلمون مسوقون بنابل من دينهم الى طلب مايكسبهم الرفعة والسؤدد ، والعزة والمجد ولا يرضيهم من ذلك مادون الغاية ، ولا يتوفر شيء من وسائل ذلك الا بالعلم، فهم محفوزون أشدّ الحفز الى طلب العلم وتلمسه في كل مكان، وتلقيه من أية شفة وأي لسان، فاذا لاقاهم العالم في أي سبيل ، أو عثروا به في أي جيل ، أو ظهر لهم من أي قبيل ، هشوا له وبشوا

ونصبوا اليه وكَمشوا (١) وشدوا به أواصرهم، وعقدوا عليه خناصرهم، ولا يبالون ما تكون عقيدته، اذا نفعتهم حكمته «الحكمة ضالة المؤمن فحيث وجدها فهو أحق بها» (٢) ألم يأتهم عن ربهم: «يُؤْتِي الحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الحِكْمَةَ فقد أوتي خيراً كثيراً وما يذَّكَّرُ الاّ اولو الألبَابَ» ألم يسمعوا فى وصفهم قوله: «الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ القَوْلَ فيتَّبِعُونَ أحْسَنَهُ» ذلك شأن المسلم مع العلم اذا كان مسلما حقا. وذلك ما تنجر اليه طبيعة دينه. وحديث اطلبوا العلم ولو بالصين (٣) ان كان في سند لفظه الى النبي صلى الله عليه وسلم مقال فسند معناه

(١) المنار — لعل نصبوا من نصب السير وهو ان يسير طول يومه سيرا لينا. وكَمِشَ الرجل كان سريعا ماضيا. وكَمُشَ كماشة شجع واسرع

(٢) حديث رواه الترمذي عن أبي هريرة ورواه غيره بألفاظ اخرى والمعنى واحد. ومنه رواية موقوفة على ابن عمر رضي الله عنهما «خذ الحكمة ولا يضرك من أي وعاء خرجت» وفى رواية عن علي كرم الله وجهه «الحكمة ضالة المؤمن نخذ الحكمة ولو من أهل النفاق» (٣) رواه ابن عدي فى الكامل والبيهقي فى شعب الايمان والمدخل وابن عبد البر في العلم والخطيب في الرحلة والديلمى فى مسند الفردوس وغيرهم وله طرق كثيرة يقوي بعضها بعضاً

متواتر فانه سند القرآن نفسه فأن الله يفضل العلم وأهل العلم بدون قيد ولا تخصيص . فالمسلم مطالب بطلب العلم ولو فى الصين ولم يكن فى الصين مسلم على عهد النبي صلى الله عليه وسلم

لا شيء ينقلب عند النفس الانسانية لذة بنفسه وان كان فى أول أمره مطلوبا لغيره مثل العلم . تطلب العلم أولا لحاجتك اليه فى تقويم معيشة . أو تر فيه حال . أودفاع عن نفس وملة ثم لا تلبث اذا أوغلت فيه أن تجد اللذة فى العلم نفسه فتصير اللذة بتحصيله والوصول الى دقائقه غاية تقصد بنفسها . وتضمحل فيها كل غاية سواها . وعلة ذلك ظاهرة فان العلم مسرح نظر العقل والعقل قوة من أفضل القوى الانسانية بل هي أفضلها على الحقيقة قد وضع لها العليم الحكيم لذة كما منح لكل قوة سواها نعيما ولذة. ولست في حاجة الى تمديد لذة البصر أو السمع أو الشم أو الذوق أو اللمس فالحيوان يعرفها بله الانسان . وكلما عظم اختصاص القوة بالنوع عظمت لذته باستعمالها فيما وجهت له فيمكنك أن تستنتج من ذلك أن لا شيء عند الانسان ألذ من كشف المجهول ، واحراز المعقول ، وقد سمح الاسلام للمسلم أن يتمتع فى هذه الحياة الدنيا بما يلذ له مع القصد

والاعتدال. أفلا يكون من لذائذه ومتمات نعيمه أن يسيح في مملكة العلم ليمتع عقله، كما يسيح في بسيط الارض ليكسب رزقه ويقيت أهله، على ان العلم كان من ضروريات معيشة المسلم أو حاجياتها كما ذكرنا فاذا طفق يستنبط ماءه للضرور ويستجلي سناءه للحاجة، فلا يلبث أن يصير هو حاجة نفسه وشاغله عن حاجات حسه، حتى يدخل معه في رمسه، كما و لكثير من المسلمين. قال إمام جليل من أئمتهم « طلبنا ا لغير الله فأبى أن يكون الا لله »

﴿نتائج هذه الاصول وآثارها في المسلمين﴾

الى م أفضت طبيعة الاسلام بالمسلمين ؟ وماذا كان أثرها في اسلافهم الاولين ؟ - فتح عمرو بن العاص رضي ا عنه مصر واستولى بجيشه على الاسكندرية بعد لحاق النبي الله تعالى عليه وآله وسلم بالرفيق الاعلى بست سنوات رواية وتسع سنوات في رواية أخرى والاسلام في طلوع فجر وتفتح نوره، فكان من بقايا ما تركت الازمان الاولى رج مسيحي من اليعقوبيين اسمه يوحنا النحوي كان في بدء أم ملاحا يعبر الناس بسفينته وكان يميل الى العلم بطبيعته فاذا رك

معه بعض أهل العلم أصغى الى مذاكرتهم . ثم اشتد به الشوق فترك الملاحة واشتغل بالعلم وهو ابن أربعين سنة فبلغ فيه مالم يبلغه الناشئون فيه من طفوليتهم وقد أحسن من العلم فنونا كثيرة حتى عد من فلاسفة وقته وأطبائه ومناطقته

يقول كثير من مؤرخي الغربيين ومؤرخي المسلمين ان عمرو ابن العاص سمع به فاستدناه منه وأكرمه لعلمه ووقعت بينهما محبة ظهر أمرها واشتهر حتى قال أحد فلاسفة الغربيين : « ان المحبة التي نشأت بين عمرو بن العاص فاتح مصر ويوحنا النحوي ترينا مبلغ مايسمو اليه العقل العربي من الافكار الحرة والرأي العالي . بمجرد ما أعتق من الوثنية الجاهلية ودخل في التوحيد المحمدي أصبح على غاية من الاستعداد للجولان في ميادين العلوم الفلسفية والادبية من كل نوع »

خالط المسلمون أهل فارس وسوريا وسواد العراق وأدخلوهم في أعمالهم ولم يمنعهم الدين عن استعمالهم حتى كانت دفاترهم بالرومية في سوريا ولم تغيّر بالعربية الا بعد عشرات من السنين فاحتكت الافكار بالافكار وأفضت سماحة الدين الى أن أخذ المسلمون في دراسة العلوم والفنون والصنائع

اشتغال المسلمين بالعلوم الادبيـة ثم العقلية

وبعد عشرين سنة من وفاته عليه الصلاة والسلام أخذ الخليفة عليّ ابن أبي طالب كرم الله وجهه يحض على تعليم الآداب العربية ويطلب وضع القواعد لها لما رأى من حاجة الناس الى ذلك . وأخذ المسلمون يتحسسون نور العلم في ظلام تلك الفتن استرسالا مع مايدعوهم اليه دينهم وتدبرهم لطلبه شريعتهـم وان كانت الحروب الداخلية التي اشتعلت نارها في أطراف بلادهم للنزاع في أمر الخلافة قد شغلتهم عن كل شيء من من مصالحهم فانها لم تشغلهم عن تلمس العلوم والتناول منها بالتدريج على سنة الفطرة . فالبراعة في الآداب من علم بوقائع العرب وتاريخهم وقول الشعر وانشاء البليغ من النثر قد بلغت في خلافة بني أمية مبلغا لم تبلغه امة قط في مثل مدتها . وكان الخلفاء الامويون يعلون منزلتها ويرفعون مكانات الشعراء والخطباء والعلماء بالسير . ثم ظهرت آثار العلوم العقلية في آخر دولتهم وترجمت جملة من الكتب العقلية والصناعية قبل نهاية القرن الاول .

نقل الخلفاء الامويون دار الخلافة من المدينة الى الشام

ولم يسيروا فى الزهد سيرة الخلفاء الراشدين فقد جاء رسول من الفرس الى عمر بن الخطاب رضي الله عنه فلما سئل عنه دل دابه فذهب اليه فاذا هو نائم على الارض تحت نخل البقيع بين الفقراء وجاءت رسل الملوك الى معاوية رحمه الله فاذا هو فى قصر مشيد محلى البنيان بأجمل مايكون من الصنعة العربية مزين بالجنات والرياض وينابيع الماء مفروش بأحسن الفرش يرى الناظر فيه أفخر الاثاث والرياش . ولم يكن معاوية فى ... قد خالف الدين أو حاد عن طريقه وانما تناول مباحا تمتع برخصة آتاه الله اياها ولا يخفى ما في ذلك من ترويج فن الابداع فى الصنعة على اختلاف ضروبها

اشتغالهم بالعلوم الكونية فى أوائل القرن الثاني

انقضت دولة بني أمية والناس في ظلمات من الفتن كما دالت الدولة لبني العباس واستقرت فى نصابها من آل بيت ... قرب نهاية الثلث الاول من القرن الثاني للهجرة (سنة ...) ثم نقل المنصور عاصمة الملك الى بغداد فصارت بعد ذلك ... مة العلم والمدنية أيضا . وأخذ المنصور ينشيء المدارس ... والشريعة وكان قد جعل من زمنه ماينفقه في تعلم العلوم

الفلكية وأكمل حفيده الرشيد ماشرع فيه وأمر بأن يلحق بكل مسجد مدرسة لتعليم العلوم بأنواعها . وجاء المأمون فوصلت به دولة العلم الى أوج قوتها ، ونالت به أكبر ثروتها ، ويقال انه حمل الى بغداد من الكتب المكتوبة بالقلم مايثقل مئة بعير . وكان من شروط صلحه مع ميشيل الثالث أن يعطيه مكتبة من مكاتب الاستانة . فوجدوا فيها من النفائس كتاب بطليموس فى الرياضة السماوية فأمر المأمون في الحال بترجمته وسموه بالمجسطي . ولا يسهل على كاتب إحصاء ماترجم من كتب العلوم على اختلافها في دولة بني العباس أبناء عم الرسول صلى الله عليه وسلم

انشاؤهم دور الكتب العامة والخاصة

وقد أخذت دول الاسلام تعتني بديار الكتب عناية لم يسبقها مثلها من دول سواها حتى كان فى القاهرة فى أوائل القرن الرابع مكتبة تحتوي على مئة الف مجلد منها ستة آلاف فى الطب والفلك لا غير . وكان من نظامها أن تعار بعض الكتب للطلبة المقيمين فى القاهرة . وكان فيها كرتان سماويتان احداهما من الفضة يقال ان صانعها بطليموس نفسه

وإنه انفق فيها ثلاثة آلاف دينار . والثانية من البرنز . ومكتبة الخلفاء في اسبانيا بلغ مافيها ست مئة الف مجلد . وكان فهرستها اربعة وأربعين مجلدا . وقد حققوا انه كان في اسبانيا وحدها سبعون مكتبة عمومية . وكان في هذه المكاتب مواضع خاصة للمطالعة والنسخ والترجمة

وبعض الخاصة كانوا يولعون بالكتب ويجعلون ديارهم معاهد دراسة لما تحتوي عليه . يقال ان سلطان بخاري دعا طبيبا اندلسيا ليزوره فأجابه ان ذلك لايمكنه لأن كتبه تحتاج الى أربعمائة جمل لتحملها وهو لا يستغني عنها كلها . وكان حنين ابن اسحق النسطوري في بغداد ممن جعل في داره مكتبة عامة يَفِدِ اليها طلاب العلوم العقلية والرياضية وكان يتبرع بمذاكرتهم فيما يريدون المذاكرة فيه

﴿ انشاؤهم المدارس للعلوم وكيفية التدريس ﴾

غطي بسيط المملكة الاسلامية على سعتها بالمدارس . نقول « على سعتها » لأنها زادت في السعة على المملكة الرومانية بكثير . فكنت تجد المدارس في كل الاقطار — في المغول . في التتار من جهة المشرق . في مراكش . في فاس . في

اسبانيا من جهة المغرب .

كانت طريقة الاساتذة فى التدريس ان كل مدرس يعد درسه ويكتب فى الموضوع الذي يلقي الدرس فيه مايريد ان يكتب ثم يلقيه على التلامذة وهم يكتبون عنه ثم تكون هذه الدروس كتبا وأمالي تنتشر بين الناس فى كل علم. وهنا نبادر الى القول بأن المؤرخين قد أجمعوا على ان جميع المقالات والكتب كانت تنشر ويتداولها الناس بدون أدنى مراقبة ولا حجر ولا تقص شيء مما كتب صاحب الكتاب غير ان مؤرخا واحدا رأيته ذكرا أنه قدوضع قانون فى بعض الممالك الاسلامية لنشر كتب العقائد مقتضاه ان لاينشر منها شيء الا باذن . على أني لا أعلم شيئا من ذلك وقع فى الممالك الاسلامية أيام كان الاسلام إسلاما

نرجع الى الكلام فى المدارس الاسلامية . يقول جبون في كلامه على حماية المسلمين للعلم فى الشرق وفى الغرب : «ان ولاة الاقاليم والوزراء كانوا ينافسون الخلفاء ، في إعلاء مقام العلم والعلماء ، وبسط اليد في الانفاق على إقامة بيوت العلم ومساعدة الفقراء على طلبه . وكان عن ذلك ان ذوق العلم

ووجدان اللذة في تحصيله قد انتشرا في نفوس الناس من سمرقند وبخارى الى فاس وقرطبة. انفق وزير واحد لأحد السلاطين (هو نظام الملك) مئتي ألف دينار على بناء مدرسة في بغداد وجعل لها من الريع يصرف في شؤونها خمسة عشر ألف دينار في السنة وكان الذين يتغذون بالمعارف فيها ستة آلاف تلميذ فيهم ابن أعظم العظماء في المملكة وابن أفقر الصناع فيها غير ان الفقير ينفق عليه من الريع المخصص للمدرسة وابن الغني يكتفي بمال أبيه والمعلمون كانوا يتقدون رواتب وافرة » اه

انقسمت الممالك الاسلامية في زمن من الأزمان الى ثلاثة أقسام وتنازع الخلافة ثلاث شيع كان العباسيون في آسيا (الشرق) والامويون في الاندلس من أوربا (الغرب) والفاطميون في مصر من افريقيا (الوسط) ولم يكن تنافس هذه الدول الثلاث قاصرا على الملك والسلطان ولكن كان التنافس أشد التنافس في العلم والادب وكان مرصد سمرقند قائما في ناحية المشرق يشير الى ما كان عليه المشرقيون من العناية برياضة الافلاك ، ومرصد جيرالد في الاندلس يجيبه بأن أهل المغرب ليسوا بأحط منهم في الادراك ،

جميع المدارس في البلاد الاسلامية أخذت نظام الامتحان في المدارس الطبية من مدرسة للطب في القاهرة وكان من أشد النظامات وأدقها، ولم يكن لطبيب ان يمارس صناعته الا على شريطة أن تكون بيده شهادة بأنه فاز في الامتحان على شدته، وأول مدرسة طبية أنشئت في قارة أوربا على هذا النظام المحكم هي التي أنشأها العرب في ساليرن من بلاد ايطاليا وأول مرصد فلكي أقيم في أوربا هو الذي أقامه العرب في أشبيلية من بلاد اسبانيا

ولع المسلمون بالعلوم الكونية على اختلافها، والفنون الادبية بجميع أنواعها، حتى القصص والاساطير الخيالية، في الأحوال الاجتماعية، وابتدأوا بأخذ العلم عن اليونانية والسريانية، وأخذوا ينقلون كتب الاولين من تلك الالسن الى اللغة العربية بالترجمة الصحيحة، وكان مترجموهم في أول الامر مسيحيين وصابئين وغيرهم ثم تعلم كثير من علماء المسلمين اللسان اليوناني واللاتيني وكتبوا معاجم في اللسانين وذلك كله ليأخذوا العلوم من أصولها، وينقلوها الى لسانهم على حسب ما يصل اليه علمهم فيها، وكان المسلمون لأبناء العظماء في أول الأمر

من المسيحيين واليهود ثم انشئت المدارس الجامعة وكان المدرسون فيها من كل ملة ودين، كل يعلم العلم الذي عرف هو بالبراعة فيه

﴿ علوم العرب واكتشافاتها ﴾

كان علم العرب في أول الامر يونانيا لكنه لم يلبث كذلك الا دون قرن واحد ثم صار عربيا، ولم يرض العربي أن يكون تلميذا لأرسطو وافلاطون أو اقليدس أو بطليموس زمنا طويلا كما بقي الأوربي كذلك عشرة قرون كاملة من التاريخ المسيحي

قالوا إن باكون هو أهل من جعل التجربة والمشاهدة قاعدة للعلوم المصرية أو أقامها مقام الرواية عن الاساتذة والتمسك بآراء المصنفين واطلق العلم من رق التقليد: ذلك حرب في اوربا أما عند العرب فقد وضعت هذه القاعدة عندهم لبناء العلم عليها في أواخر القرن الثاني من الهجرة، أول شيء تميز به فلاسفة العرب عمن سواهم من فلاسفة الأمم هو بناء معارفهم على المشاهدات والتجربيات وان لا يكتفوا بمجرد المقدمات العقلية في العلوم مالم تؤيدها التجربة حتى لقد نقل جوستاف لوبون عن

أحد فلاسفة الاوربيين : أن القاعدة عند العرب هي «جرب وشاهد ولاحظ تكن عارفا» وعند الاوربي الى مابعد القرن العاشر من التاريخ المسيحي «اقرأ فى الكتب وكرر مايقول الاساتذة تكن عالما» . (فلينظر المصريون وغيرهم من الشرقيين كيف انقلبت الحال، وماذا اعقب من سوء المآل)

قال ديلامبر فى تاريخ علم الهيأة : «اذا عددت فى اليونانيين اثنين أو ثلاثة من الراصدين امكنك ان تعد فى العرب عددا كبيرا غير محصور» . أما فى الكيمياء فلا يمكنك ان تعد مجربا واحدا عند اليونانيين ولكنك تعد من المجربين مئين عند العرب ولهذا عدت الكيمياء الحقيقية من اكتشاف العرب دون سواهم . وقد كانوا يعدون الهندسة والفنون والرياضية من الآلات المنطقية، يستعملونها فى الاستدلال على القضايا النظرية ، وهي من أصدق الادلة فى الايصال الى المجهولات كما هو معروف

العرب هم من أول استعمل الساعات الدقاقة للدلالة على أقسام الزمن وهم أول من اتقن استعمال الساعات الزوالية لهذا الغرض . وقد اكتشفوا قوانين لثقل الاجسام جامدها ومائعها

حتى وضعوا لها جداول في غاية الدقة والصحة كما وضعوا جداول للارصاد الفلكية وكانت تلك الجداول معروفة يطلع عليها الناظرون في سمرقند وبغداد وقرطبة حتى لقد وصلوا بتلك القوانين الى مايقرب من اكتشاف الجاذبية

لايمكنني في مقالي هذا ان اعدّ ما اكتشف العرب ولا مازادوه في العلوم على اختلاف أنواعها فذلك يحتاج الى سفر كبير . وقد أحصى ذلك أهل المعرفة والانصاف من فلاسفة الاوربيين ومؤرخيهم . وربما يتيسر لابناء الامة العربية أن ينشروا ذلك لاخوانهم حتى يعرفوا ما كان عليه اسلافهم . (١) ولكنني أذكر كلمة قالها بعض حكماء الغربيين (٢) : « لا تأخذنا الدهشة أحيانا عند ماننظر في كتب العرب فنجد آراء كنا نعتقد أنها لم تولد الا في زماننا كالرأي الجديد في ترقي الكائنات العضوية وتدرجها في كمال أنواعها فان هذا الرأي كان مما يعلمه العرب في مدارسهم وكانوا يذهبون به الى أبعد مما ذهبنا فكان عندهم عاما يشمل الكائنات غير العضوية

---

(١) المنار : قد نشرنا جملة صالحة من ذلك في مقالات (مدنية العرب) في المجلد الثالث (٢) هو الفيلسوف درابر الاميركاني

والمعادن والاصل الذي بنيت عليه الكيمياء عندهم هو ترقي المعادن في أشكالها . قال الخازني : اذا سمع الشعب الجاهل ما يقال بين العلماء ان الذهب قد تقلب في الاشكال المختلفة حتى صار ذهبا ظن من هذا أنه مر في صور معادن أخرى فكان رصاصا ثم قصديرا ثم صفرا ثم فضة ثم صار بعد ذلك ذهبا ولا يعلم ان الفلاسفة اذا قالوا ذلك فانما يقصدون منه ما أرادوه من قولهم في الانسان انه وصل الى حالته الحاضرة بالتدريج ومن طريق الترقي وهم لم يعنوا بقولهم هذا انه تقلب في صور الانواع المختلفة كأن كان ثورا ثم حمارا ثم فرسا ثم قردا ثم صار بعد ذلك إنسانا ؛ اهـ

ويقول الفيلسوف كوستاف لوبون : « ان العرب أول من علّم العالم كيف تتفق حرية الفكر مع استقامة الدين »

وهنا انكر على بعض فلاسفتهم ما نقلوه عن ابن رشد من انه ذهب في حرية الرأي الى نقض أصول الدين وقال إن الروح لا بقاء لها بعد فناء الجسد وإنما الذي يبقى هي أرواح الانواع . فان هذا خطأ عرض لهم من سوء فهم كلامه في بيان بقاء الانواع دون الاشخاص فانه قال كما قال ارسطو وغيره : إن الاشخاص توجد وتفنى وأما الانواع فهي باقية

لاتزول . وهذا باب آخر يغاير بالمرة مااستنتجوا منه (وقد سبق الكلام فى بيان رأيه من وجه آخر (١)) كما أخطأ وافى قولهم عنه إنه كان يعتقد بأن الله روح العالم يظهر فيصوره والكل يرجع اليه بمعنى انه يفنى فى ذاته ولايبقى فى العالم باق آخر وهو يقرب من قولهم السابق . فان ابن رشد كان مسلما وكان يعرف ان الاسلام لاينافي العلم وإنما ينافي هذا الضرب من الوهم الذي لم يسقط فيه أحد الا من عثرة فى طريق العلم أو الاسترسال مع الخيال . وكثير ممن سكروا بهذا الرأي أفاقوا منه . ولكن كتب ابن رشد التي بين أيدينا تبعد بنا عن نسبة هذا الرأي اليه كما سبق بيانه (٢) ولكني لاأنكر نسبته لو نسب الى ابن سبعين وهو ممن أخذ عن تلامذة ابن رشد فان فى كلامه مايدل على ذلك

ويقول فيلسوف آخر : « ان العلوم التي تلقاها العرب عن اليونانيين وغيرهم وكانت ميتة بين دفات الدفاتر مقبورة بين جدران المكاتب أومخزونة فى بعض الرؤس كأنها أحجار ثمينة فى بعض الخزائن لاحظ للانسانية منها سوى النظر اليها ـ صار

---

(١)و(٢)قد سبق ذلك فيالمقالة الاولى التى رد بها الكاتب على الجامعة

عند العرب حياة الآداب ، وغذاء الارواح ، وروح الثروة ، وقوام الصنعة ، ومهمازا للقوى البشرية يسوقها الى كمالها الذي أعدت له . وليس فى الاوربيين من درس التاريخ وحكم العقل ثم ينكر ان الفضل ـ فى إخراج أوروبا من ظلمة الجهل الى ضياء العلم وفي تعليمها كيف تنظر وكيف تتفكر وفى معرفتها ان التجربة والمشاهدة هما الاصلان اللذان يبنى عليهما العلم ـ انما هو للمسلمين وآدابهم ومعارفهم التي حملوها اليهم وأدخلوها من اسبانيا وجنوب إيتاليا وفرنسا عليهم . وكان من حظ العلم العربي والادب المحمدي عند مادخلا الى ايتاليا ان البابا كان غائبا لان كرسيه كان انتقل الى فرنسا فى أفنيون نحو سبعين سنة فدب العلم الى شمال ايتاليا واستقر به القرار هناك . ان شوارع باريس لم تفرش بالحجارة الا فى القرن الثاني عشر وقد رصّت بالبلاط على نحو مارصّت به مدن اسبانيا » اه

ويقول آخر : « لاأدري كيف أعطانا الاسلام فى مدة قرنين عددا من الفلكيين يطول سرد افراده وان الكنيسة تسلطت على العالم المسيحي اثنى عشر قرنا فى أوربا ولم تمنحنا فلكيا واحدا »

هذا النماء والزكاء العلمي لم يكن خاصا بطائفة دون طائفة بل كان الناس فى التمكن من تناوله سواء . وانما كان التفاضل بالجد والعمل . والفضل فى ذلك كله لحلم الخلفاء وعمالهم وسماحة الدين ويسره وسهولته على أهله وأهل ذمته . قال بعض فلاسفة الغربيين قولا يعرفه الحق وتثبته المشاهدة : « ان شعوب الأرض لم ترقط فاتحا بلغ من الحلم هـذا المبلغ (يريد فاتحي الاسلام على اختلافهم) ولا دينا بلغ فى لينه ولطفه هذا الحد »

أخذ الخلفاء والامراء . بيد العلم والعلماء

ان الخلفاء الذين يقال عنهم انهم رؤساء دين وحكام سياسة مما كانوا هم بأنفسهم المتعلمين للعلوم الداعين الى تعلمها . كانوا العالمين العاملين . كان خليفة كالمأمون يضطهد أحيانا أعـداء الفلسفة وقد عرف التاريخ كثيرين من أرباب الشهرة لذين قضوا في سجنه الشهور أو الـذين لأنهـم كانوا يعادون الفلسفة ظنا منهم ان منها ما يعدو على الدين فيفسده . هل رأيت فى غير الاسلام رئيسا دينيا يضطهد أعداء العلم وجناة الفلسفة؟ لعلك لا تجده أبدا

كان أهل العلم والأدب عامة يجدون من الاحترام عند الخلفاء والامراء والخاصة ما يليق بهم كيفما كانت حالهم .

وسأضرب المثل بالشيخ أبي العلاء المعري لشهرته بين الناس بما يشبه الزندقة: يذكر علي بن يوسف القفطي أن صالح بن مرداس صاحب حلب خرج الى المعرة وقد عصى أهلها عليه فنازلها وشرع في حصارها ورماها بالمنجنيق فلما أحس أهلها بالغلب سعوا إلى أبي العلاء بن سليمان وسألوه ان يخرج ويشفع فيهم فخرج ومعه قائد يقوده فأكرمه صالح واحترمه ثم قال: ألك حاجة؟ قال: الأمير أطال الله بقاءه كالسيف القاطع لان مسه وخشن حده، وكالنهار البالغ قاظ وسطه وطاب برده، «خذ العفو وأمر بالمعروف وأعرض عن الجاهلين» فقال له صالح قد وهبتها لك. ثم قال له انشدنا شيئا من شعرك لنرويه فأنشده على البديهة أبياتا فيه فترحل صالح. فانظر كيف وهب الامير بلدا عصى أهله لفيلسوف معروف بما هو عنه معروف. ولو ذكرت ما نال العلماء والفلاسفة عند الامراء والخلفاء لطال بي المقال أكثر مما طال وفيما سبق كفاية لمكتف

إزالة شبهتين وبيان حقيقة الاضطهاد

قد يتوهم قوم ان الاضطهاد قد يظهر في مقت العامة وخلقهم ما يخلقون من المفتريات على أهل العلم والفكر الحر وهمس

بعضهم فى آذان بعض وتغامزهم على أهل الفضل ولمزهم إياهم بالالقاب بل واحتقارهم فى بعض الاحيان وهذا النوع منه عند المسلمين بلا نكير . وهو خطأ ظاهر لان هذا النوع مما يكره أهل العلم لاتخلو منه أرض ولاتطهر منه بلاد مهما بلغ أهلها من الحرية ومهما بلغ ذوق العلم من نفوس أهلها فان القائمين على عقيدة الكاثوليك الى اليوم فى أرض فرنسا نفسها يمقتون الفلاسفة الذين يظهرون بمعاداة الكنيسة ويكتبون مايوهن قواعدها وقد يختلق عليهم أحزاب الكاثوليك مالم يقولوه ويرون ان النظر فى كتبهم لايجوز فى شريعة الدين . ونحن لا نرتاب فى ان نحو هذا كان عند المسلمين أيام كانت سوق الفلسفة رائجة عندهم ولكنه ليس من الاضطهاد فى شيء وإنما هي نفرة الانسان مما لا يعرف مع ترك صاحبه وشأنه يمضي فى سبيله الى حيث يشاء

يقول آخرون : ان التاريخ يروي لنا ان بعض أرباب الأفكار قد أخذه السيف لغلوه فى فكره فلم يترك له من الحرية مايتمتع به الى منتهى مايبلغ به وليس يصح ان ينكر ماصنع الخليفة المنصور وغيره بالزنادقة

وأقول : ان كثيرا من الغلوّ اذا انتشر بين العامة أفسد نظامها واضطرب أمنها كما كان من آراء الحلاج وأمثاله(١) فتضطر السياسة للدخول في الامر لحفظ أمن العامة فتأخذ صاحب الفكر لا لانه تفكر ولكن لانه لم يرد ان يقصر حق الحرية على شخصه بل أراد أن يقيد غيره بما رآه من الحرية لنفسه مع ان غيره في غنى عما يراه هو حقا له وتخشى الفتنة اذا استمر مدعي الحرية في غلوائه فلهذا يرى حفاظ النظام أن امثال هؤلاء يجب ان ينفى منهم المجتمع صونا له عما يزعزع أركانه . ونحن نرى الفلسفة اليوم تضطهد الدين هذا الضرب من الاضطهاد . ألم تقض الحكومة الفرنسية على الراهبين والراهبات أن تكون جمعياتهم ومدارسهم تحت سيطرة الحكومة وان لا ينشأ شيء منها الا باذن من الحكومة ومن لم يخضع لذلك تنحل جمعيته وتقفل مدارسه بقوة السلاح . وقد ينفى من البلاد كما نفي كثيرون في سنين سابقة ؛ ولكن هل

---

(١) المنار — ذكر امام الحرمين في كتابه (الشامل) في اصول الدين انه كان بين الحلاج والجبائي رئيس القرامطة اتفاق سري على قلب الدولة وان ذلك هو السبب الحقيقي في قتل الحلاج

يسمى هذا اضطهادا ؟ كلا ولكن الاضطهاد حق الاضطهاد هو اضطهاد محكمة التفتيش واضطهاد رؤساء الاصلاح بعدها في أول نشأتهم

ماذا يقول القائلون ؟ ان التعليم عند المسلمين كان غريبا أمره ، يكاد يكون خفيا سره ، مسجد أو مدرسة تابعة لمسجد يجلس فيها للتدريس الفقيه والمتكلم والمحدث والنحوي والمتأدب والفيلسوف والفلكي والمهندس ؛ ينتقل الطالب من بين يدي الفقيه ليجلس بين يدي الفيلسوف ومن مجلس الحديث الى مجلس الادب واذا وقعت مذاكرة بينهم في مسألة من المسائل أخذت الحرية مأخذها في الاقناع والالزام وسقطت قيمة الغلو في التعبير وأخذ التسامح بينهم مأخذه . كان عمرو بن عبيد رئيس المعتزلة وأشدهم صلابة في اصول مذهبه ومع ذلك هو من مشايخ الامام البخاري صاحب الصحيح وكانت له منزلة عند المنصور تعلو كل ذي منزلة عنده حتى قال له يوما وهو خارج من بين يديه «رميت لكل الناس حبا فلقطوا الا اياك يا عمرو ابن عبيد» فانظر كيف كان لامام من أئمة السنة أن يصل سنده في الحديث برئيس من رؤساء المعتزلة ولا يرى في ذلك بأسا

اذا عد عاد بعض رجال العلم الذين أخذتهم القسوة فى الاسلام وقتلتهم حماقة الملوك باغراء الفقهاء وأهل الغلو في الدين فما عليه الآن ينظر فى أحوالهم فيقف لاول وهلة على ان الذي اثار أولئك عليهم ليس مجرد العصبية للدين وأن ليست الغيرة عليه هي الباعث لهم على الوشاية بهم وطلب تنكيلهم . وإنما تجد الحسد هو العامل الأول فى ذلك كله والدين آلة له . ولهذا لا ترى مثل ذلك الاذى يقع الاعلى قاضي قضاة (كابن رشد ورجوع الحاكم الى العفو عنه وإزاله منزلته دليل على ذلك (أو وزير أوجليس خليفة أو سلطان أو ذي نفوذ عظيم بين العامة . وهـذا كما يقع من الفقهاء مثلا لإيذاء الفلاسفة يقع من الفقهاء بعضهم مع بعض لإهلاك بعضهم بعضا كما يشهد به العيان ويحكي لنا التاريخ فليس هذا كذلك معدودا من معنى اضطهاد الدين للفلسفة لان التحاسد أكثر ما يقع بين من لادين لهم على الحقيقة وان لبسوا لباسه . وإنما ذلك الاضطهاد هو الذي يحمل عليه محض الاختلاف فى العقيدة أو ظن المخالفة للدين فى شيء من العلم أو العمل لضيق لدين عن ان يسع المخالف بجانبه وهذا لم يقع فى الاسلام . اللهم الا ان يكون حادث لم يصل الينا

هذه طبيعه الدين الاسلامي عرضت عليك فى أهمّ عناصرها ومقومات مزاجها . وهذا كان أثرها فى العالم الشرقىّ والغربي . وهذه سمة فضل الدين وقوته على احتمال مخالفيه وتيسيره لأولئك المخالفين ان يحتموا به متى رضوا بأن يستظلوا بظله . هل فى هذا خفاء على ناظر ، وهل يرضي لبيب لنفسه ان ينكر الضوء الباهر ، أفلا يبسم الاسلام عجبا وهو فى أشد الكرب لعقوق أبنائه ، من أديب لم يكن يعده من أعدائه ان لم يحسبه فى أحبائه ، عند مايراه يسدد سهمه اليه ، ويجور كما يجور الجائرون فى حكمه عليه ، ؟ ؟

الاسلام اليوم

أو الاحتجاج بالمسلمين على الاسلام

المقال الرابع لذلك الامام الحكيم

ربما يسأل سائل فيقول : سلمنا ان طبيعة الاسلام تأبى اضطهاد العلم بمعناه الحقيقي وأنه لم يقع من المسلمين الأولين تعذيب ولا إحراق ولا شنق لحملة العلوم الكونية ، ومقومي العقول البشرية ، لكن أليس العلماء من المسلمين اليوم أعداء

العلوم العقلية ، والفنون المصرية، أوليس الناس تبعا لهم ؛ أفلا يكون للاديب عذره فيما يراه ويسمعه حوله؟ألم يسمع بأن رجلا فى بلاد اسلامية غير البلاد المصرية كتب مقالا في الاجتهاد والتقليد وذهب فيه الى ماذهب اليه أئمة المسلمين كافة. ومقالا بين فيه رأيه فى مذهب الصوفية وقال انه ليس مما انتفع به الاسلام بل قد يكون مما رزىء به أومايقرب من هذا وهو قول قال به جمهور أهل السنة من قبله . فلما طبع مقاله فى مصر تحت اسمه هاج عليه حَمَلَةَ العمائم، وسكنَةَ الاثواب العباعب، وقالوا انه مرق من الدين، أوجاء بالافك المبين، ثم رفع أمره الى الوالي فقبض عليه وألقاه فى السجن . فرفع شكواه الى عاصمة الملك وسأل السلطان ان يأمر بنقله الى العاصمة ليثبت براءته مما اختلق عليه بين يدي عادل لايجور ، ومهيمن على الحق لايحيف ، الخ ما يقال فى الشكوى . فأجيب طلبه لكن لم ينفعه ذلك كله فقد صدر الامر هناك أيضا بسجنه ولم يعف عنه الا بعد اشهر مع انه لم يقل الا ما يتفق مع أصول الدين ولا ينكره القارىء والكاتب ، ولا الآكل والشارب،

ألم يسمع السامعون ان الشيخ السنوسي (والد السنوسي

صاحب الجغبوب) كتب كتابا فى أصول الفقه زاد فيه بعض مسائل على أصول المالكية وجاء فى كتاب له ما يدل على دعواه أنه ممن يفهم الاحكام من الكتاب والسنة مباشرة وقد يرى ما يخالف رأي مجتهد أو مجتهدين . فلم يذلك أحد المشايخ المالكية (رحمه الله تعالى) وكان المقدم فى علماء الجامع الازهر الشريف فحمل حربة وطلب الشيخ السنوسي ليطعنه بها لأنه خرق حرمة الدين ، واتبع سبيلا غير سبيل المؤمنين ، وربما كان يجترىء الاستاذ على طعن الشيخ السنوسي بالحربة لو لاقاه وإنما الذي خلص السنوسي من الطعنة ، ونجّى الشيخ المرحوم من سوء المغبة ، وارتكاب الجريمة باسم الشريعة ، هو مفارقة السنوسي للقاهرة قبل أن يلاقيه الاستاذ المالكي .

هل غاب عن الاذهان ما كان ينشر في الجرائد من نحو ثلاث سنين بأقلام بعض علماء الجامع الازهر من المقالات الطويلة الاذيال الواسعة الأردان في استهجان إدخال علم تقويم البلدان (الجغرافيا) بين العلوم التي يتلقاها طلبة الجامع الأزهر ؛ وكان كتاب تلك المقالات يعرضون بمن أشار بادخال هذا العلم وغيره بين تلك العلوم وأنه إنما يريد الغضّ من

علوم الدين . أم لم تنشر في العام الماضي فصول بأقلام بعضهم تشير الى الطعن في عقيدة البعض الآخر وإرادة التشهير به مع انه لم يجهر بكفر ولم يقل قولا يبعد من الكتاب والسنة ؟

ألم تحمل الينا الرواة ماعند علماء الافغان والهند والعجم من شدة التمسك بالقديم ، والحرص على ماورثوا عن آبائهم الأقربين ، وإقامة الحرب على كل من حاول ان يزحزحهم أصبعا عما كان عليه سلفهم ، وان كان في البقاء عليه تلفهم ، وما عليه الحال اليوم في حكومة المغرب من الغلوّ في التعصب والمعاقبة بقطع بعض الاعضاء في شرب الدخان أو بالقتل في كلمة ينكرها السامعون ، وان أجمع عليها المسلمون الآخرون ،

ثم ألا يتخيل المؤمل انه يسمع من جوف المستقبل صَخَبًا وَلَجَبًا، وضوضاء وَجَلَبَــة وَهيْعَاتٍ مضطربة، اذ قيل انه ينبغي لطلبة الازهر ان يدرسوا طرفا من مبادىء الطبيعة أو يحصلوا جملة من التاريخ الطبيعي ؟ ألا تقوم قيامة المتقين، ألا يصيحون أجمعين أكتعين أبتعين ، : هـذا عدوان على الدين ، هـذا توهين لعقده المتين ، هذا تغرير بأهله المساكين ، ولا يزالون يشيدون بهـذا الى ان لايبقى شيء عرف له اسم في اللغة الا

ألصقوه بهذه البدعة في زعمهم

هل هـذه الحال جديدة على المسلمين حتى يقال إنها عارض عرض عليهم ، أو مرض من الامراض الوافدة اليهم ، ؟ لا يسهل على من يعرض أحوال المسلمين تحت نظره من قرون متعددة أن يظن ان هذه الحال من العلل الطارئة على أمزجة الأمم خصوصا عند ما يجد الوحدة في الصفات ، والشمول في جميع الاعتبارات ، فلو أخذ مسلما من شاطىء الاطلانطيقي وآخر من تحت جدار الصين لوجد كلمة واحدة تخرج من أفواههما وهي : « إنا وجدنا آباءنا على أمة وانا على آثارهم مهتدون » وكلهم أعداء لكل مخالف لما هم عليه وإن نطق به الكتاب واجتمعت عليـه الآثار ، اللهم الا فئة زعمت انها نفضت غبار التقليد وأزالت الحجب التي كانت تحول بينها وبين النظر في آيات القرآن ومتون الاحاديث لتفهم أحكام الله منها . ولكن هـذه الفئة اضيق عطنا وأحرج صـدرا من المقلدين وان انكرت كثيرا من البدع ونحت عن الدين كثيرا مما أضيف اليه وليس منه . فانها ترى وجوب الاخذ بما يفهم من لفظ الوارد والتقيد به بدون التفات الى ماتقتضيه الاصول التي

قام عليها الدين ، واليها كانت الدعوة ، ولاجلها منحت النبوة ، فلم يكونوا للعلم أولياء ، ولا للمدنية السليمة أحباء ،

هل يمكن ان ينكر أحد جمود الفقهاء ووقوفهم عند عبارات المصنفين على تباينها واختلافها واضطراب الآراء في فهمها واذا عرضت حادثة من الحوادث ولم يكن لمصنف معروف رأي فيها احجموا عن إبداء الرأي واجتهدوا في تحويلها عن حقيقتها الى ان تتفق مع قول معروف في كتاب من الكتب حتى لقد جاء طالب علم من بلد من بلاد الدولة العثمانية وأراد الالتحاق بأحد الاروقة في الجامع الازهر فوقع الشك هل بلده مما لاهله استحقاق في ذلك الرواق على حسب نص الواقف . فقال قائل لشيخ الرواق : ان كتب تقويم البلدان تشهد بأن البلد داخل في شرط الواقف . فقال : إنني لا أقنع بما في تلك الكتب وإنما الذي يصح ان آخذ به هو ان يكون فقيه (ممن مات) قال ان هذا البلد من قطر كذا وهو الذي وقف الواقف على أهله . واذا قيل لأحدهم : إن الائمة انفسهم لم يبينوا مواقع البلدان ولم يضعوا لنا جدولا لبيان ما يحويه كل قطر وبيان الحدود التي ينتهي اليها وإن أصول دينا تسمح لنا بأن

نأخذ بأقوال العلماء فى هذه الفنون (وهم منا) وبتواتر الاخبار وما أشبه ذلك من البديهيات قال : انما أريد نصا فقهيا ، لا دليلا عقليا ،

واذا قيل لهم ، اختلت الشؤون ، وفسدت الملكات والظنون ، وساءت أعمال الناس ، وضلت عقائدهم ، وخوت عباداتهم من روح الاخلاص ، فوثب بعضهم على بعض بالشر ، وغالت أكثرهم أغوال الفقر ، فتضعضعت القوة ، واخترق السياج ، وضاعت البيضة وانقلبت العزة ذلة ، والهداية ضلة ، وسا كنتكم الحاجة ، وألفتكم الضرورة ، ولا تزالون تألمون مما نزل بكم وبالناس ، فهلا نبهكم ذلك الى البحث فى اسباب ما كان سلفكم عليه ، ثم على ماصرتم وصار الناس اليه ، قالوا : ذلك ليس الينا ، ولا فرضه الله علينا ، وانما هو للحكام ينظرون فيه ، ويبحثون عن وسائل تلافيه ، فان لم يفعلوا ولن يفعلوا فذلك لأنه آخر الزمان وقد ورد فى الاخبار مايدل على انه كائن لامحالة وان الاسلام لابدان يرفع من الارض ولا تقوم القيامة الا على لكع ابن لكع . واحتجوا على اليأس والقنوط بآيات وأحاديث وآثار تقطع الامل ، ولا تدع فى نفس حركة الى عمل ،

رأي رنان في الاسلام : هذا الجمود ـ الذي لو أردنا بيان ما امتد اليه من طيات الافكار وثنيات الوجدان لكتبنا فيه كتابا ـ هو الذي حمل الموسيو رنان الفيلسوف الفرنسي المشهور ان يقول في عرض كلام له في تساهل المذاهب الدينية مع العلم نقلته عنه الجامعة : « على انني أخشى ان يثبت الدين الاسلامي وحده في وجه هذا التسامح العام في العقائد ولكنني أعرف ان في نفوس بعض الرجال المتمسكين بآداب الدين الاسلامي القديمة وفي بضعة من رجال الاستانة وبلاد الفرس جراثيم جيدة تدل على فكر واسع وعقل ميال الى المسالمة . الا انني اخشى ان تختنق هذه الجراثيم بتعصب بعض الفقهاء فاذا اختنقت قضي على الدين الاسلامي . ذلك انه من الثابت الآن أمران ـ الأول ان التمدن الحديث لايريد إماتة الأديان بالمرة لأنها تصلح أن تكون وسيلة اليه . والثاني انه لايطيق أن تكون الأديان عثرة في سبيله . فعلى هذه الأديان ان تسالم وتلين والا كان موتها ضربة لازب » اه كلام رنان بتصرف لفظي قليل

فمن أين يكون هذا الجمود العام الذي سمح للطاعنين ان

يحكموا على الاسلام بأنه عثرة فى طريق المسلمين يسقط بهم دون ان ينالوا فلاحا فى سعيهم ، أو نجاحا في أعمالهم ، من أين يكون هـذا الجمود ان لم يكن من طبيعة الدين ؟ ومن أين يكون ماسردناه من الحوادث ان لم يكن ناشئا من أصول الدين ؟ فان لم تسلم بأن هذا اضطهاد وان الاضطهاد من لوازم الدين الاسلامي فعليك ان تسلم بانه عدواة للعلم أو اشمئزاز منه، أو استهجان له أو احتقار لشأنه، وأحد هذه الامور كاف اذا عم بين المسلمين في ان ينفر بهم عن كل مجد ، وأن يحرمهم كل نعم ، وان يحقق فيهم ماتنبأ به رنان وغيره فما قولك فى هذا ؟ ؟

«الجواب»

أقول هذا كلام فيه شية من الحق ، ولمة من الصدق، أما ما نسمعه حولنا من سجن من قال بقول السلف فليس الحامل عليه التمسك بالدين فان حملة العمائم إنما حركهم الحسد لا الغيرة . وأما صدور الأمر بالسجن فهو من مقتضيات السياسة والخوف من خروج فكر واحد من حبس التقليد

فتنتشر عدواه فينتبه غافـل آخر ويتبعه ثالث ثم ربما تسري العـدوى من الدين الى غير الدين ـ الى آخر ما يكون من حرّية الفكر يعوذون بالله منها . فان شئت ان تقول إن السياسة تضطهد الفكر أو الدين أو العلم فانا معك من الشاهدين.

أعوذ بالله من السياسة ، ومن لفظ السياسة ، ومن معنى السياسة ومن كل حرف يلفظ من كلمة السياسة ، ومن كل خيال يخطر ببالي من السياسة ، ومن كل أرض تذكر فيها السياسة ، ومن كل شخص يتكلم أو يتعلم أو يُجَنّ أو يعقل في السياسة ، ومن ساس ويسوس ، وسائس ومسوس ،، يدلك على ان العقوبة سياسة أن الرجل كان يقول بقول السلف من أهل الدين .

لا تقل إن هـذه السياسة من الدين ، فاني اشهد الله ورسله وملائكته وسلفنا أجمعين ، ان هذه السياسة من أبعد الامور عن الدين ، كأنها الشجرة التي تخرج في أصل الجحيم ، طلعها كأنه رؤوس الشياطين ، فإنهـم لآكلون منها فمالئون منها البطون ، ثم ان لهم عليها لَشَوْبًا من حميم ، ثم إن مرجعهـم لَإلَى الجحيم ، انهم ألفَوْا آباءهم ضالين ، فهم على آثارهم يُهْرَعُونَ ،

جمود المسلمين وأسبابه

وأما ما وصفت بعد ذلك من الجمود فهو مما لا يصح ان ينسب الى الإسلام وقد رأيت صورة الاسلام فى صفحاتها ونصوع بياضها ليس فيها مايصح أن يكون اصلا يرجع اليه شيء مما ذكرت ولا مما تنبأ بسوء عاقبته (رنان) وغيره . وانما هي علة عرضت على المسلمين عند ما دخل على قلوبهم عقائد أخرى سا كنت عقيدة الاسلام فى افئدتهم . وكان السبب في تمكنها من نفوسهم وإطفائها لنور الاسلام من عقولهم هو السياسة كذلك هو تلك الشجرة الملعونة في القرآن عبادة الهوى وإتباع خطوات الشيطان هو السياسة

لم ار كالإسلام دينا حفظ أصله، وخلط فيه أهله ، ولا مثله سلطانا تفرق عنه جنده ، وخفر عهده ، وكفر وعيده ووعده، وخفي على الغافلين قصده، وإن وضح للناظرين رشده، أ كل الزمان أهله الأولين، وأدال منهم خشارة من الآخرين ، لاموا فهموه فأقاموه ، ولاهم رحموه فتركوه، سواسية من الناس اتصلوا به، ووصلوا نسبهم بسببه، وقالوا نحن أهله وعشيرته ، وحماته وعصبته ، وهم ليسوا منه فى شيء إلا كما يكون الجهل

من العلم ، والطيش من الحلم ، وأفن الرأي من صحة الحكم ،

أنظر كيف صارت مزية من مزايا الاسلام سببا فيما صار اليه أهله . كان الاسلام دينا عربيا ثم لحقه العلم فصار علما عربيا بعد ان كان يونانيا ، ثم أخطأ خليفة فى السياسة فاتخذ من سعة الاسلام سبيلا إلى ماكان يظنه خيرا له . ظن أن الجيش العربي قد يكون عونا لخليفة علوي لأن العلويين كانوا ألصق ببيت النبي صلى الله عليه وآله وسلم . فأراد أن يتخذ له جيشا أجنبيا من الترك والديلم وغيرهم من الامم التي ظن أنه يستعبدها بسلطانه ، ويصطنعها باحسانه ، فلا تساعد الخارج عليه ولا تمين طالب مكانه من الملك . وفى سعة أحكام الاسلام وسهولته ما يبيح له ذلك . هنالك استعجم الاسلام وانقلب عجميًا .

خليفة عباسي أراد أن يصنع لنفسه ولخلفه وبئس ماصنع بأمته ودينه — أكثر من ذلك الجند الاجنبي وأقام عليه الرؤساء منه فلم تكن الاعشية أوضحاها حتى تغلب رؤساء الجند على الخلفاء واستبدوا بالسلطان دونهم وصارت الدولة فى قبضتهم . ولم يكن لهم ذلك العقل الذي راضه الاسلام والقلب الذي هذبه الدين . بل جاؤا الى الاسلام بخشونة الجهل يحملون

ألوية الظلم . لبسوا الاسلام على أبدانهم ، ولم ينفذ منه شيء الى وجدانهم ، وكثير منهم كان يحمل إلهه معه يعبده في خلوته، ويصلي مع الجماعات لتمكين سلطته ، ثم عدا على الاسلام آخرون كالتتار وغيرهم ومنهم من تولى أمره ، أيّ عدو لهؤلاء أشد من العلم الذي يعرّف الناس منزلتهم ويكشف لهم قبح سيرهم ؛ فملوا على العلم وصديقه الاسلام ميلتهم . أما العلم فلم يحفلوا بأهله ، وقبضوا عنه يد المعونة وحملوا كثيرا من أعوانهم أن يندرجوا في سلك العلماء وأن يتسربلوا بسرابيله، ليعدوا من قبيله، ثم يضعوا للعامة في الدين ما يبغض اليهم العلم ويبعد بنفوسهم عن طلبه . ودخلوا عليهم وهم أغرار من باب التقوى وحماية الدين . زعموا الدين ناقصا ليكملوه ، أو مريضا ليعللوه، أو متداعيا ليدعموه ، أو يكاد ان ينقض ليقيموه،

نظروا الى ما كانوا عليه من فخفخة الوثنية، وفي عادات من كان حولهم من الأمم النصرانية ، فاستعاروا من ذلك للاسلام ماهو براء منه لكنهم نجحوا في اقناع العامة بأن في ذلك تعظيم شعائره ، وتفخيم أوامره ، والغوغاء عون الغاشم ، وهم يد الظالم ، فخلقوا لنا هذه الاحتفالات ، وتلك

الاجتماعات ، وسنوا لنا من عبادة الاولياء والعلماء والمتشبهين بهم مافرق الجماعة ، وأركس الناس فى الضلالة ، وقرروا ان المتأخر ، ليس له أن يقول بغير مايقول المتقدم ، وجعلوا ذلك عقيدة حتى يقف الفكر وتجمد العقول . ثم بثوا أعوانهم فى أطراف الممالك الاسلامية ينشرون من القصص والاخبار والآراء ما يقنع العامة بأنه لانظر لهم في الشئون العامة . وأن كل ماهو من أمور الجماعة والدولة فهو مما فرض فيه النظر على الحكام دون من عداهم ومن دخل فى شيء من ذلك من غيرهم فهو متعرض لمالا يعنيه . وأن مايظهر من فساد الاعمال ، واختلال الاحوال ، ليس من صنع الحكام وانما هو تحقيق لما ورد في الاخبار من أحوال آخر الزمان . وأنه لاحيلة فى إصلاح حال ولا مآل . وأن الأسلم تفويض ذلك الى الله وما على المسلم الا أن يقتصر على خاصة نفسه . ووجدوا فى ظواهر الألفاظ لبعض الأحاديث مايعينهم على ذلك وفى الموضوعات والضعاف ماشد أزرهم فى بث هذه الاوهام . وقد انتشر بين المسلمين جيش من هؤلاء المضلين وتماون ولاة الشرع على مساعدتهم فى جميع الأطراف واتخذوا من عقيدة القدر مثبطا

للعزائم وغلا للايدي عن العمل . والعامل الاقوى فى حمل النفوس على قبول هذه الخرافات إنما هو السذاجة وضعف البصيرة فى الدين وموافقة الهوى . أمور اذا اجتمعت أهلكت . فاستتر الحق تحت ظلام الباطل ورسخ فى نفوس الناس من العقائد مايضارب أصول دينهم ويباينها على خط مستقيم كما يقال

هذه السياسة سياسة الظلمة وأهل الأثرة هي التي روجت ما ادخل على الدين مما لا يعرفه واسلبت من المسلم أملا كان يخترق به أطباق السموات ، وأخلدت به الى يأس يجاور به العجماوات ، فجل ما نراه الان مما نسميه إسلاما فهو ليس باسلام وانما حفظ من أعمال الاسلام صورة الصلاة والصوم والحج ومن الاقوال قليلا منها حرفت عن معانيها . ووصل الناس بما عرض على دينهم من البدع والخرافات الى الجمود الذي ذكرته وعدوه دينا . نعوذ بالله منهم ومما يفترون على الله ودينه . فكل مايعاب الآن على المسلمين ليس من الاسلام وإنما هو شيء آخر سموه اسلاما . والقرآن شاهد صادق «لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد» يشهد بأنهم كاذبون ، وانهم عنه لاهون ، وعما جاء به

معرضون ، وسنوفي لك الكلام في مفاسد هذا الجمود ونثبت انه علة لابد ان تزول

مفاسد هذا الجمود ونتائجه

طال أمد هذا الجمود لاستمرار عمل العاملين في المحافظة عليه ، وولع شهواتهم بالدفاع عنه ، وقد حدثت عنه مفاسد يطول بيانها وانما يحسن اجمال القول فيها . كان الدين هو الذي ينطلق بالعقل في سعة العلم ويسيح به في الارض ويصعد به الى اطباق السماء ليقف به على أثر من آثار الله أو يكشف به سرا من أسراره في خليقته ، أو يستنبط حكما من أحكام شريعته ، فكانت جميع الفنون مسارح للعقول تقتطف من ثمارها ماتشاء وتبلغ من التمتع بها ما تريد . فلما وقف الدين ، وقعد طلاب اليقين ، وقف العلم وسكنت ريحه ، ولم يكن ذلك دفعة واحدة ولكنه سار سير التدريج

جناية الجمود على اللغة : أول جناية لهذا الجمود كانت على اللغة العربية وأساليبها وآدابها فان القوم كانوا يعنون بها لحاجة دينهم اليها – أريد حاجتهم في فهم كتابهم الى معرفة دقائق أساليبها ، وما تشير اليه هيئة تركيبها ، وكانوا يجدون انهم لن

يبلغوا ذلك حتى يكونوا عربا بملكاتهم ، يساوون من كانوا عربا بسلائقهم ، فلما لم يبق للمتأخر الا الاخذ بما قال المتقدم قصر المحصلون تحصيلهم على فهم كلام من قبلهم وا كتفوا بأخذ حكم الله منه بدون ان يرجعوا الى دليله ولو نظروا فى الدليل فرأوه غير دال له بل دالاً لخصمه بأن كان عرض له فى فهمه مايعرض للبشر الذين لم يقرر الدين عصمتهم لخطأوا نظرهم وأعموا أبصارهم وقالوا : نعوذ بالله أن تذهب عقولنا الى غير ماذهب اليه متقدمنا وأرغموا عقلهم على الوقفة فيصيبه الشلل من تلك الناحية . فأيّ حاجة له بعد ذلك الى اللغة العربية نفسها وقد يكفيه منها مايفهم به أسلوب كلام المتقدم وهو ليس من أولئك العرب الذين كان ينظر الاَّولون فى كلامهم .

وهكذا كل متأخر يقصر فهمه على النظر في كلام من يليه هو غير مبال بسلفه الاول بل ولا بما كان يحفّ بالقول من أحوال الزمان فهو لاينظر الا للفظ وما يعطيه فتسقط منزلته في تحصيل اللغة بمقدار بعده عن أهلها حتى وصل حال الناس الى مانراهم عليه اليوم . جعلوا دروس اللغة لفهم عبارة بعض المؤلفين فى النحو وفنون البلاغة وان لم يصلوا منها الى غاية

في فهم ماوراءها فَدَرَسَت علوم الاولين وبادت صناعاتهم ، بل فقدت كتب السلف الاولين رضي الله عنهم ، وأصبح الباحث عن كتاب المدونة لمالك رحمه الله تعالى أو كتاب الام للشافعي رحمه الله تعالى أو بعض كتب الامهات في فقه الحنفية كطالب المصحف في بيت الزنديق . تجد جزءا من الكتاب في قطر وجزءه الآخر في قطر آخر فاذا اجتمعت لك أجزاء الكتاب وجدت ماعرض عليها من مسخ النساخ حائلا بينك وبين الاستفادة منها

هذا كله من أثر الجمود وسوء الظن بالله وتوهم ان أبواب فضل الله قد أغلقت في وجوه المتأخرين، ليرفع بذلك منازل المتقدمين، وعدم الاعتبار بما ورد في الاخبار من أن المبلَّغ ربما كان اوعى من السامع(١) وان هذه الامة كالمطر لا يدرى أوله خير اوآخره(٢)

(١) المنار : يشير الى حديث ابن مسعود عندالترمذي وابن ماجه وهو : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « نضّر الله امرءاً سمع مني شيئاً فبلغه كما سمعه فرب مبلغ اوعى له من سامع» ورواه غيرهما عن غيره (٢) يشير الى حديث انس عند الترمذي وهو : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « مثل امتي مثل المطر لايدرى اوله خير ام آخره» ورواه غيره

وقلة الالتفات الى ان ذلك قد أضاع اثار المتقدمين أنفسهم ولا حول ولا قوة إلا بالله . لاريب ان القارئ يحيط بمقدار ضرر هذه الجناية على اللغة ٠ يكفيه من ذلك انه اذا تكلم بلغته لغة دينه وكتابه وقومه لايجد من يفهم مايقول ، وأي ضرر أعظم من عجز القائل عن ان يصل بمعناه إلى المقول»

جناية الجمود على النظام والاجتماع: وأعظم من هذه الجناية جناية التفريق وتمزيق نظام الامة وايقاعها فيما وقع فيه من سبقها من الاختلاف وتفرق المذاهب والشيع في الدين . كان اختلاف السلف فى الفتيا يرجع إلى اختلاف أفهام الأفراد وكل يرجع الى أصل واحد لايختلفون فيه وهو كتاب الله وماصح من السنة فلا مذهب ولا شيعة ولا عصبية تقاوم عصبية . ولو عرف بعضهم صحة مايقول الآخر لأسرع الى موافقته كما صرح به جميعهم ٠ ثم جاء أنصار الجمود فقالوا يولد مولود في بيت رجل من مذهب إمام فلا يجوز له ان ينتقل من مذهب أبيه الى مذهب إمام آخر . واذا سألتهم قالوا : « وكلهم من رسول الله ملتمس » لكنه قول باللسان ، لا أصل له فى الجنان ، ثم كانت حروب جدال بين أئمة كل مذهب لو صرفت آلاتها

وقواها في تبيين أصول الدين ونشر آدابه وعقائده الصحيحة بين العامة لكننا اليوم في شأن غير ما نحن فيه، يجد المطلع على كتب المختلفين من مطاعن بعضهم في بعض ما لا يسمح به أصل من أصول الدين الذي ينتسبون اليه. يضلل بعضهم بعضا ويرمي بعضهم بعضا بالبعد عن الدين وما المطعون فيه بأبعد عن الدين من الطاعن ولكنه الجمود، قد يؤدي إلى الجحود،

كان الاختلاف في العقائد على نحو الاختلاف في الفتيا تخالف أشخاص في النظر والرأي. وكان كل فريق يأخذ عن الآخر ولا يبالي بمخالفته له في رأيه. مسجدهم واحد وإمامهم واحد وخطيبهم واحد فلما جاء دور الجمود ـ دور السياسة ـ أخذ المتخالفون في التقطع، وأخذت الصلات تتقطع، وامتازت فرق، وتألفت شيع، كل ذلك على خلاف مايدعو اليه الدين. وقد بذل قوم وسعهم في تمييز الفرق تمييزا حقيقيا فما استطاعوا وانما هو تمييز وهمي، وخلاف في أكثر المسائل لفظي، وإنما هي الشهوات، وضروب السياسات، اشعلت نيران الحرب بين المنتسبين الى تلك الشيع حتى آل الأمر الى هذه الفرقة التي يظن الناظر فيها أنها لا دواء لها.

قال قائل من عدة سنين : إنه ينبغي ان يعين القضاة فى مصر من أهل المذاهب الاربعة لان أصول هذه المذاهب متقاربة وعبارات كتبها مما يسهل على الناظر فيها أن يفهمها . وقال : ان الضرورة قاضية بأن يؤخذ فى الاحكام ببعض أقوال من مذهب مالك أو مذهب الشافعي تيسيرا على الناس ودفعا للضرر والفساد . فقام كثير من المتورعين ، يحوقلون ويندبون حظ الدين ، كأن الطالب يطلب شيئا ليس من الدين ، مع انه لم يطلب الا الدين ، ولم يأت الا بما يوافق الدين ، وبما كان عليه العمل فى أقطار العالم الى ماقبل عدة سنين ، فأين قول هؤلاء « وكلهم من رسول الله ملتمس » ؟ لكن هو جمود المتأخر على رأي من سبقه مباشرة وقصر نظره عليه دون التطلع الى ماوراءه . أو هي السياسة تحلّ ماتشاء وتحرم ماتشاء ، وتصحح ماتشاء وتبطل ماتشاء ، والناس منقادون اليها بأزمة القوة أو الاهواء ،

جناية الجمود على الشريعة وأهلها : هذا الجمود فى أحكام الشريعة

جرّ الى عسر حمل الناس على اهمالها . كانت الشريعة الاسلامية أيام كان الاسلام اسلاما سمحة تسع العالم بأسره وهي

اليوم تضيق عن أهلها حتى يضطروا الى ان يتناولوا غيرها وان يلتمسوا حماية حقوقهم فيما لا يرتقي اليها . وأصبح الاتقياء من حملتها يتخاصمون الى سواها . صعب تناول الشريعة على الناس حتى رضوا بجهلها عجزا عن الوصول الى عملها فلا ترى العارف بها من الناس الا قليلا لا يعدّ شيئا اذا نسب الى من لا يعرفها . وهل يتصور من جاهل بشريعة أن يعمل بأحكامها ؟ فوقع أغلب العامة فى مخالفة شريعتهم بل سقط احترامها من أنفسهم لانهم لا يستطيعون أن يطبقوا أعمالهم على مقتضى نصوصها . وأول مانع لهم ضيق الطاقة عن فهمها لصعوبة العبارات وكثرة الاختلاف . سألت يوما أحد المدرسين فى بعض المذاهب : هل تبيع وتشتري وتصرف النقود على مقتضي ما تجد فى كتب مذهبك ؟ فأجاب أن تلك الاحكام قلما تخطر بباله عند المعاملة بالفعل وانما يفعل ما يفعل الناس . هكذا فعل الجمود بأهله ولو أرادوا أن تكون للشريعة حياة تحيي بها الناس لفعلوا ولسهل عليهم وعلى الناس ان يكونوا بها أحياء

تعلم ماوصل اليه الناس من فساد الاخلاق والانحراف عن حدود الشريعة . لو سألت عن سببه فى القرى وصغار المدن

لوجدته أحد أمرين اما فقد العارف بالشريعة والدين وسقوط القرية أو المدنية فى جاهلية جهلاء يرجع بعض أهلها الى بعض فى معرفة الحلال والحرام وليس المسؤل بأعلم من السائل وكلهم جاهلون ، وإما عجز العارف عن تفهيم من يسأله لاعتقال لسانه عن حسن التعبير بطريقة تفهمها العامة فهو إذا سئل يقرأ كتابا أو يسرد عبارة يصعب على السامع فهمها وعلى المتكلم افهامها . وذلك للحرج الذي وضع فيه نفسه فلا يستطيع التصرف فيما يسمع ولا فيما يعلم . فاذا قلت للعارف: تعلم من وسائل التعبير مايقدرك على مخاطبة الطبقات المختلفة من الناس حتى تنفع بعلمك واعمل بنفسك إلى ان تفهم الغرض من قول إمامك فتجد لأصله انطباقا على هذه الحادثة مثلا وان لم يأت ذكرها بنفسها فى قوله أو قول من جاء بعده من أتباعه : قال : سبحان الله ! هل فعل ذلك أحد من المشايخ ؟ يريد ان لا يأتي شيئا الا ما اتى به شيخه الذي أخذ عنه يدا بيد ولو أبعد بنظره لوجد قد ماء المشايخ قد فعلوه وبالغوا فيه حتى خالفوا من أخذوا عنه فى بعض رأيه . ثم اذا حاججته فى ذلك لم يبعد من رأيه أن يعدك زنديقا

وأنك تدعوه الى الخروج من دينه ولا يدري المسكين أنه بذلك يخالف نصوص دينه وأنه يتهيأ للخروج منه نعوذ بالله تعالى

كان كلام بيني وبين أحد المدرسين فى أخذ الطلبة بالنصيحة وتذكيرهم بفضائل الاخلاق وصالح الأعمال خصوصا عند إلقاء الدروس الفقهية ودروس الحديث والتوحيد فقال لي : إنه لافائدة في ذلك قطعا وهو تعب في غير طائل . فقلت له : ذلك حق عليك أن تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر وليس عليك أن يأتمر المأمور ولاأن ينتهي المنهيّ : فقال : اذا تحققت استحالة المنفعة كان الامر والنهي لغوا. فانظر كيف اعتقد استحالة الانتفاع بنصحه لبلوغ الفساد من النفوس غايته كما يزعم . ولم ينظر فى الوسيلة لاقتلاع هذا الفساد مع ان الدين يدعوه الى ذلك وهو يعمل كل يوم عمله لتعليم من لا سبيل إلى اصلاحه . هذا كله لأنه لم ير نفسه أهلا لأن يتخذ وسيلة لم يتخذها من أخذ عنه أولم يرشده اليها من تعلم هو بين يديه ولم يتذكر عند ذلك شيئا من الأوامر الإلهية التي وردت فى النصيحة والتآمر بالمعروف والتناهي عن المنكر وأن اليأس من روح الله إنما يكون من

القوم الكافرين أو الضالين

لا بل إذا قلت له ان هـذا الضرب من ضروب التعليم عقيم لا ينتج المطلوب منه أو ان هـذا الكتاب الذي تعوّد الطلاب قراءته قد يضر بقارئيه وغيره أفضل منه: كاد يظن ان قولك هـذا مخالف للدين ورأى المدول عمّا تعوّده نوعا من الاخلال بالدين . وقد يقيم عليك حربا يعتقد نفسه فيها مجاهدا في سبيل الله اذا قلت له : ان دروس السلف كانت تقريرا للمسائل واملاء للحقائق على الطلاب ولم يكن لاحد منهم كتاب يأخذه بيده ويقرئه تلامذته ولم يكن بأيدي الطلبة الا الاقلام والقراطيس يكتبون مايسمعونه من أفواه أساتذتهم . وقد يعترف لك بصحة ماتقول ولكنه يستمر فى عمله اعتمادا على أنه وجد الناس هكذا يعملون . فهل يخطر ببال عاقل ان هذا الجمود من الدين ؟ وهل يرتاب من له أدنى إدراك فى سوء عقباه على الدين وأهل الدين ؟

جناية الجمود على العقيدة : ذلك جمودهم فى العمل وأشد ضررا منه الجمود فى العقيدة . نسوا ماجاء فى الكتاب وأيدته السنة من ان الايمان يعتمد اليقين ولا يجوز الاخذ فيه بالظن

وان العقل هو ينبوع اليقين فى الايمان بالله وعلمه وقدرته والتصديق بالرسالة وان النقل ينبوع له فيما بعد ذلك من علم الغيب كأحوال الآخرة وفروض العبادات وهيآتها وان العقل ان لم يستقل وحده فى إدراك مالا بد فيه من النقل فهو مستقل لامحالة فى الاعتقاد بوجود الله وبأنه يجوز ان يرسل الرسل فتأتينا عنه بالمنقول. نسوا ذلك كله وقالوا : لابد من اتباع مذهب خاص فى العقيدة وافترقوا فرقا وتمزقوا شيعا كما قلنا . ولم يكفهم الالزام باتباع مذهب خاص فى نفس المعتقد بل ذهب بعضهم الى انه لابد من الأخذ بدلائل خاصة للوصول الى ذلك المعتقد فيكون التقليد فى الدليل كالتقليد فى المدلول . وكأنهم لذلك جعلوا النقل عمادا لكل اعتقاد وياليته النقل عن المعصوم بل النقل ولو عن غير المعروف . فتقررت لديهم قاعدة : ان عقيدة كذا صحيحة لان كتاب كذا للمصنف فلان يقول ذلك : ولما كانت الكتب قد تختلف أقوالها صار من الصعب أن يجد الواحد منهم لنفسه عقيدة قارّة صافية غير كدرة ولا متزعزعة. وقد سرى ذلك من قراء المقلدين الى اميهم فتراهم يعتقدون بكل مايقال وينقل عن معروف

الاسم وان لم يكن فى حق الأمر من أهل العلم وتتناقض عقائدهم على حسب تناقض مسموعاتهم

انجرّ التساهل فى الاعتماد على النقل الى الخروج عما اختطه لنا السلف رضي الله عنهم فقد كانوا ينقبون عن صفات من ينقلون عنه ويمتحنون قوله حتى يكونوا على شبه اليقين من أنه موضع الثقة ، ولكن جمود المتأخر على مايصل اليه من المتقدم صير النقل فوضى فتجد كل شخص يأخذ عمن عرفه وظن أنه أهل للاخذ عنه بدون بحث ولا تنقيب حتى شاع بين الناس من الاقوال وموضوعات الاحاديث ماترتفع الاصوات بالشكاية منه من حين الى حين ، وكل ما تراه من البدع المتجددة فنشؤه سوء الاعتقاد الذي نشأ من رداءة التقليد والجمود عند حد ما قال الاول بدون بحث فى دليله ولا تحقيق فى معرفة حاله واهمال العقل فى العقائد على خلاف مايدعو اليه الكتاب المبين والسنة الطاهرة . دخلت على الناس لذلك عقائد يحتاج صاحب الغيرة على الدين فى اقتلاعها من أنفسهم الى عناء طويل وجهاد شديد وسلاحه الكتاب وسلاح أعدائه أقوال بعض من تقدم من يعرف ومن لا يعرف ـ وما أكثر عدد من

ينصر أعداءه اليوم وما أقلهم غدا إن شاء الله

سأل سائل من الاستاذ شيخ الجامع الازهر من حكم عمل من الاعمال الجارية فى المساجد يوم الجمعة ـ ومنزلة الشيخ من الرياسة فى أهل العلم بالدين منزلته ـ فأفتى بما ينطبق على السنة ومايعرفه العارفون بالدين وقال ان العمل بدعة من البدع يجب التنزه عنها. أتظن ان المستفتي أمكنه العمل بمقتضى الفتيا؟ كلا. حدث قيل وقال، وكثرة تسآل، ودخلت السياسة ثم قيل ان الزمان ناصر الحقيقة وقد وجدنا الامر كذلك من قبلنا وسكت السائل وماذا يصنع المجيب. نعم هذا من شؤم ذلك الجمود فقد فصل بين العامة ومن يرجى فيهم تقويم مااعوج منها ووكلها الى اناس منها لاعلم لهم بالدين ولا بالادب وقد غرسوا في أذهان الدهماء شر الغرس ولا تجني الأمم منه الا أخبث الثمر. فلو قام العالم بالدين وأراد ان يبين حكم الله المصرح به فى كتابه وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم المجمع عليه عند السلف قاطبة انتصب له ناعر من العامة يصيح فى وجهه « ماسمعنا بهذا فى آبائنا الأولين » ويريد من آبائه الأولين من رآهم بعد ولادته أوذكرت له أسماؤهم بلسان مضليه حتى

صار ارشاد العامة اليوم من أصعب الامور وأشقها على طالبه ماذا يمكن ان أقول أصبح الرجل يرتكب فى وسائل العبادة أقبح المنكرات فى الدين واذا دعي الى ترك المنكر نفر وزمجر ، وأبى واستكبر ، انظر ماذا يصنع الموسوسون ومن يقرب منهم فى الاستبراء من البول على مرأى من المارة وفيهم النساء والاطفال وهم يظنون انهم يتقربون الى الله بما يفعلون

هـذا هو شأن العامة يرون ماليس بدين دينا ويصعب على حفاظ الدين إرشادهم بفضل جمودهـم على ماورثوا من ملقنيهم بدون تعقل . فهذا معظم الامة تراه قد تملص من أيدي منذريه ولو شاؤا لا قبل كل منهم على صاحبه وهو أيسر شيء على حملة الشريعة وما هو الا ان يرجعوا الى ما كان عليه النبيّ صلى الله عليه وسلم وأصحابه من سعة الدين وسماحته ، ثم العمل على حفظه وحياطته ،

﴿ الجمود ومتعلمو المدارس النظامية ﴾

ثم ان الجمود قد أحدث لنا فريقا آخر وهو فريق المتعلمين على الطرق الجديدة إما فى مدارس الحكومات الاسلامية وإما فى المدارس الاجنبية داخل بلادهم أوخارجا

منها . لا أتكلم عن هذا الفريق فى بلاد القرم أو القوقاس أو سمرقند وبخارى أو الهند فاني لا أعرف كثيرا من أحوالهم ومن رأيته منهم رأيت فيه خيرا وأرجو ان يكون منهم لقومهم ما ينتظره الاسلام من العارفين به فقد رأيت افرادا قليلين من هؤلاء تعلموا فى البلاد الأوربية ودرسوا العلوم فيها درسا دقيقا وهم أشد تمسكا بلب الدين الاسلامي وروحه من كثير ممن يدعي الورع والتقوى ولا يسمحون لانفسهم بترك عادة صحيحة من العادات التي أورثها دينهم قومهم فنعم المتعلمون هؤلاء أكثر الله منهم

وانما أتكلم عن هذا الفريق من المتعلمين فى مصر وسوريا وسائر بلاد الدولة العثمانية . سماحة الاسلام وسعة حلمه للعلم أباحت للمسلمين ان يرسلوا أولادهم ليأخذوا العلم فى المدارس الرسمية وغير الرسمية عن أساتذة فيهم المسلم وغير المسلم أو عن أساتذة كلهم غير مسلمين بل فى مدارس لم تبن الا لترويج دين غير الدين الاسلامي . وأباحت لغير آباء هؤلاء التلامذة ان يسكتوا وان لا ينكروا عليهم عملهم مادامت العقيدة سالمة من الهدم أو الضعضعة

جمود تلامذة المدارس الاجنبية : هؤلاء التلامـذة ان كانوا في مدارس أجنبية لا أثر لتعليم الدين الاسلامي فيها بل ربما يتعلم فيها دين آخر فقـد يسري الى عقائدهم شيء من الضعف وقد تذهب عقائدهم بالمرة وتحتل مكانها عقائد أخرى تناقضها كما شوهـد ذلك مرارا . ولو كان آباؤهم على علم بطرق الاستدلال الاقناعية لعقائد دينهم لدعموا من عقائد أبنائهـم وحفظوها من التزلزل أو الزوال . وكيف يكون لاولئك الآباء شيء من هذا العلم مع الجمود على طرق قديمة لا يصل الى فهمها من ينقطع لتعلمها فضلا عن أولئك المساكين . بل لو كان هناك مرشدون على طريقة يسهل فهمها لتيسر لهؤلاء التلامذة أن يهتدوا بهديهم ولكن الجمود صير كل شيء صعبا وكل أمر غير مستطاع

فهـذه جناية من جنايات الجمود على أبناء المسلمين الذين يتعلمون فى مدارس أجنبيـة يخرجهم من دينهـم من حيث لا يشعرون . وياليتهم يستبدلون بالدين رادعا آخر من الأدب والحكمة كما يرجو بعض المغرورين الذين لا يعلمون طبائع هذه الأمم أو كما يروّجه بعض من لا يريد الخير بها . ولكنه

ترك أشدهم هوى خالية من كل زاجر أو دافع الاهم الا زاجرا عن خير أو دافعا إلى شر فاتخذوا إلههم هواهم وإمامهم شهوتهم فهلكوا وأهلكوا . ومن هؤلاء ورثة الاغنياء الذين تصيح من شرور أعمالهم الجرائد كل يوم . فالجهل خير مما يتعلم هؤلاء بدون ريبة وليت الاسلام لم يرحب صدره لمثل هذا الضرب من التعليم والتعلم .

جمود تلامذة المدارس الرسمية والاهلية :

أما المتعلمون فى مدارس رسمية أو غير رسمية للتعليم الديني فيها شيء من البقية فهؤلاء ينشأون على شيء من المعارف في الفنون المختلفة وتقرر لهم حقائق فى الكون السماوي أو الارضي أو فى الاجتماع الانساني ومن عرف شيئا انطلق لسانه بالخوض فيه وقد يسمعه متنطع ممن يلبس لباس أهل الدين وهو جامد على ألفاظ سمعها فلو سمع غيرها أنكره وظنه مخالفا للعقيدة الصحيحة فيأخذ يلوم المتعلم ويوبخه ويرميه بالمروق من الدين . هذا والمتعلم لايشك فى قوة دليله ولجهله بالدين يعتقد أن مايقوله خصمه منه فينفر من دينه نفرته من الجهل . ولو قال له قائل: ارجع الى كتب الدين تجد فيها مايسرك

ويصرك على نفسك وخصمك . حار لايدري الى أي كتاب يرجع ولم يسهل عليه فهم تلاث العبارات التي ورثها القوم على ما فيها من تشتيت وتعقيد وأبقوها كما ورثوها . فيعود الى النفور من الدين نفور طالب الفهم مما لايمكنه فهمه

لهذا يعتقد أكثر هؤلاء ان الدين شيء غير مفهوم بل قد يعده بعضهم خرافة « نعوذ بالله » فيأخذون عنه جانبا ويتركون عقائده وفضائله وآدابه ويلتمسون لهم آدابا في غيره وقلما يجدونها فتراهم وقد فترت قلوبهم وقصرت هممهم فلا يطلبون الا ماتطلبه العامة من كسب معيشة أو علو جاه ويسلكون الى ذلك أي طريق ولو أضروا بالعامة أو الخاصة « مادام الشرف محفوظا » فاذا وجد بينهم من يدعي الوطنية أو الغيرة الملية أو نحو ذلك فانما ينثر الالفاظ نثراً لا يرجع فيها الى أصل ثابت ولا الى علم صحيح ولهذا يطلب المصلحة لبلاده من الوجه الذي يؤدي الى المفسدة وهو يشعر أو لا يشعر على حسب حاله . ومنهم من يصيح باسم الدين ولا تتحرك نفسه لمعرفة حكم من احكامه أو درس عقيدة من عقائده فشأنهم كلام في كلام ولبئس مايصنعون . ولولا هذا الجمود لوجدوا

فى كتب دينهم وفى أقوال حَمَلَتِهِ ماتبتهج به قلوبهم ، وتطمئن اليه نفوسهم ، ولذاقوا طعم العلم مأدوما بالدين وتمكنوا من نفع أنفسهم وقومهم ولوجدت منهم طبقة معروفة يرجع اليها فى سير الامة وسياسة أفكارها وأعمالها الاجتماعية.

﴿ الجمود علة تزول ﴾

(المقال الخامس لذلك الامام الحكيم • وفيه بيان علاج الداء)

تفصيل مضرات هذا الجمود وسيئاته يحتاج الى كتاب طويل فنكتفي بما أوجزناه فى الصفحات السابقة . ولكن يبقى الكلام في أنه عارض يمكن زواله ان شاء الله تعالى •

قد عرفت من طبيعة الدين الاسلامي بعد عرضها عليك فيما سبق انها تسمو عن ان ينسب اليها هذا المرض الخبيث ـ مرض الجمود على الموجود ـ وكم في الكتاب من آية تنفر من اتباع الآباء مهما عظم أمرهم بدون استعمال العقل فيما كانوا عليه ولا حاجة الى إعادة ذلك • ثم اننا أشرنا أيضا الى بعض الاسباب التي جلبت هذا الجمود على المسلمين لا على الاسلام وان محدثها إما عدو للمسلمين طالب لخفض شأنهم أو لاستعبادهم واستغلال أيديهم لخاصة نفسه • وإما محب جاهل

يظن خيرا ويعمل شرا وهذا الثاني كان أشد نكاية ، وأعون على الغواية ، وهل تزول هذه العلة ويرجع الاسلام الى سمته الاولى وكرمه الفياض وينهض بأهله الى ماذخر لهم فيه ؟؟

جاء فى الكتاب المبين « إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ» ذلك الذكر هو الذكر الحكيم هو القرآن الذي أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير . هو كما قال « كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ » وعد الله بحفظ هذا الكتاب وقد انجز وعده لم تطل اليه يد عدوّ مقاتل ، ولا يد محب جاهل ، فبقي كما نزل ولا يضره عمل الفريقين فى تفسيره وتأويله فذلك مما لايلتصق به فهو لايزال بين دفات المصاحف طاهرا نقيا بريئا من الاختلاف والاضطراب . وهو إمام المتقين ، ومستودع الدين ، واليه المرجع اذا اشتد الأمر وعظم الخطب وسئمت النفوس من التخبط في الضلالات . ولا يزال لأشعة نوره نفوذ من تلك الحجب التي أقاموها دونه ولابد ان تمزق كلها بأيدي أنصاره فيتباج ضياؤه لأعين أوليائه ان شاء الله تعالى

هذا الضياء كان ولا يزال يلوح لامعه في حنادس الظلم لافراد اختصهم الله بسلامة البصيرة فيهتدون به اليه ويحمدون سراهم ، بما عرفوا من نجاح مسعاهم ، ولكن الذين أطبقت عليهم ظلم البدع ، وران على قلوبهم ما كسبوا من التحزب للشيع ، وطمست بصائرهم ، وفسدت عقولهم ، بما حشوها من الاباطيل وبما عطلوها عن النظر في الدليل ، هؤلاء في عمى عن نوره وقلوبهم في أكنة ان يفقهوه في آذانهم وقر . يصيحون بأنهم عمي صم فلا يرون له سناء ، ولا يسمعون له نداء ، ويعدون ذلك من كمال الايمان به ولبئس مارضوا لأنفسهم من السفه وطيش الحلم وهم يعلمون . هذا حال الجمهور الاعظم ممن يوصفون بأنهم مسلمون ويجلبون العار على الاسلام بدخولهم تحت عنوانه ، ويقوون حجج أعدائه في حربه بزعمهم الاجتماع تحت لوائه ، وماهم منه في شيء كما قدمنا

هؤلاء لا بد ان يصيبهم ما أصاب الامم قبلهم فقد اتبعوا سننهم شبرا بشبر وذراعا بذراع وضيقوا على أنفسهم بدخولهم في حجر الضب الذي دخلوه (١) ومن اتبع سنن قوم استحق

---

(١) المنار : في الكلام اشارة الى حديث « لتتبعن سنن من قبلكم

الوقوع تحت أحكام سنن الله فيهم فلن يخلص مما قضى الله في عذابهم . فقد قص عليهم سير الاولين وبين لهم ما نزل بهم عند ما انحرفوا عن سننه وحادوا عن شرعه ونبذوا كتابه وراءهم ظهريا - أحل بهم الذل، وضرب عليهم المسكنة، وأورث غيرهم أرضهم وديارهم - فهل ينتظر المتبعون سننهم، السائرون على أثرهم، أن يصنع الله بهم غير الذي صنع بسابقيهم وقد قضى بأن تلك سنته ولن تجد لسنته تبديلا

لا تزال الشدائد تنزل بهؤلاء المنتسبين إلى الاسلام ولا تزال القوارع تحل بديارهم حتى يفيقوا (وقد بدأوا يفيقون من سكراتهم) ويفزعوا الى طلب النجاة وينفضوا قذى المحدثات عن بصائرهم ، وعند ذلك يجدون هذا الكتاب الكريم في انتظارهم يمد لهم وسائل الخلاص ويؤيدهم في سبيله بروح القدس ويسير بهم الى منابع العلم فيغترفون منها مايشاؤون فيعرفون أنفسهم ويشهدون ما كان قد كمن فيها من قوة فيأخذ بعضهم بيد بعض ويسيرون إلى المجد غير ناكلين

شبراً بشبر وذراعا بذراع حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه » الحديث رواه الشيخان وغيرهما

ولا مخذولين . ولهذا أقول : ان الاسلام لن يقف عثرة في سبيل المدنية أبدا ولكنه سيهذبها وينقيها من أوضارها وستكون المدنية من أقوى أنصاره متى عرفته وعرفها أهله . وهذا الجمود سيزول وأقوى دليل لك على زواله بقاء الكتاب شاهدا عليه بسوء حاله ولطف الله بتقييض أناس للكتاب ينصرونه ، ويدعون اليه ويؤيدونه ، والحوادث تساعدهم ، وسوط عذاب الله النازل بالجامدين ينصرهم ،

هذا الكتاب المجيد الذي كان يتبعه العلم حيثما سار شرقا وغربا لا بدان يعود نوره إلى الظهور ويمزق حجب هذه الضلالات ويرجع إلى موطنه الاول فى قلوب المسلمين ويأوي اليها العلم يتبعه وهو خليله الذي لا يأنس الا إليه ، ولا يعتمد الا عليه ،

يقول اولئك الجامدون الخامدون كما يقول بعض أعداء القرآن : ان الزمان قد أقبل على آخره ، وإن الساعة أوشكت ان تقوم ، وإن ماوقع فيه الناس من الفساد ، وما مني به الدين من الكساد ، وماعرض عليه من العلل ، وماتراه فيه من الخلل ، إنما هو أعراض الشيخوخة والهرم ، فلا فائدة فى السعي ولا ثمرة للعمل ، فلا حركة إلا الى العدم ، ولا يصح ان يمتد بصرنا

الا الى العدم ، ولا أن ننتظر من غاية لأعمالنا سوى العدم، (نعوذ بالله) هؤلاء حفدة الجهل وأعوان اليأس يعرفون عالا يعرفون . ماذا عرفوا من الزمان حتى يعرفوا انه كاد ينقطع عند نهايته ؟ ان الذي مضى بيننا وبين مبدإ الاسلام ألف وثلاثمائة وعشرون عاما وإنما هي يوم وبعض يوم أو بعض يوم فقط من أيام الله تعالى . وان آيات الله فى الكون ـ وان كانت تدل على أن مامضى على الخليقة يقدر بالدهور الدهارير ، ـ تشهد بأن مابقي لهذا النظام العظيم يقصر عن تقديره كل تقدير ، «فما لهؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثا» . ان مابيننا وبين مبدإ الإسلام لا يزيد من عمر ستة وعشرين رجلا كل رجل يعيش خمسين سنة . فهل يعد مثل ذلك دهرا طويلا بالنسبة الى دين عام كدين الاسلام ؟ ان زمنا كهذا لا يكفي ـ وقد تبين انه لم يكف ـ لاهتداء الناس كافة بهديه . ولِمَ تقوم القيامة على الدين ولم تقم على شرههم وطمعهم ؟

قد وعد الله بأن يتم نوره وبأن يظهره على الدين كله فسار فى سبيل التمام والظهور على العقائد الباطلة أعواما ثم انحرف به أهله عن سبيله وصاروا به إلى ماروى ونرى . ولن نقضي

العالم حتى يتم ذلك الوعد ويأخذ الدين بيد العلم ويتعاونا معا على تقويم العقل والوجدان فيدرك العقل مبلغ قوته، ويعرف حدود سلطنته، فيتصرف فيما آتاه الله تصرف الراشدين، ويكشف ما مكنه فيه من أسرار العالمين، حتى اذا غشيته سبحات الجلال وقف خاشعا، وقفل راجعا، وأخذ إخذ الراسخين في العلم الذين قال فيهم أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب (كرم الله وجهه) فيما روي عنه : «هم الذين أغناهم عن اقتحام السُّدد المضروبة دون الغيوب، الاقرار بجملة ما جهلوا تفسيره من الغيب المحجوب، فمدح الله اعترافهم بالعجز عن تناول ما لم يحيطوا به علما، وسمى تركهم التعمق فيما لم يكلفهم البحث عن كنهه رسوخا»، واعتبر بعد ذلك بقوله : «فاقتصر على ذلك ولا تقدر عظمة الله سبحانه على قدر عقلك فتكون من الهالكين . هو القادر الذي اذا ارتمت الاوهام لتدرك منقطع (١) قدرته، وحاول الفكر المبرّأ من خطرات الوسواس ان يقع عليه في عميقات غيوب ملكوته، وتولهت (٢) القلوب اليه لتجري في كيفية صفاته، وغمضت مداخل العقول في حيث لا تبلغه الصفات لتناول علم ذاته،

(٢) المنقطع ما ينقطع عنده الشيء وهو آخره (٢) تولهت اشتد عشقها

ردها وهي تجوب مهاوي سدف (١) الغيوب متخلصة اليه سبحانه ، فرجعت اذ جُبِهت (٢) معترفة بأنه لاينال بجور الاعتساف كنهه ، ولا تخطر ببال أولي الروايات خاطرة من تقدير جلال عزته »

هنا لك يلتقي (أي العقل) مع الوجدان الصادق (القلب) ولم يكن الوجدان ليدابر العقل في سيره داخل حدود مملكته متى كان الوجدان سليما ، وكان ما استضاء به من نبراس الدين صحيحا ، اياك ان تعتقد مايعتقده بعض السذج من ان فرقا بين العقل والوجدان (القلب) في الوجهة بمقتضى الفطرة والغريزة . فانما يقع التخالف بينهما عرضا عند عروض العلل والامراض الروحية على النفوس . وقد أجمع العقلاء على ان المشاهدات بالحس الباطني (الوجدان أو القلب) من مبادي البرهان العقلي كوجدانك انك موجود ووجدانك لسرورك وحزنك وغضبك ولذتك وألمك ونحو ذلك .

منحنا العقل للنظر في الغايات ، والاسباب والمسببات ، والفرق بين البسائط والمركبات ، والوجدان لادراك مايحدث

(١) السدف جمع سدفة تظلمة لفظا ومعنى (٢) جبه ضربت جبهته ورُد

في النفس والذات من لذائذ وآلام ، وهلع واطمئنان ، وشماس وإذعان ، ونحو ذلك مما يذوقه الانسان ، ولا يحصيه البيان ، فهما عينان للنفس تنظر بهما – عين تقع على القريب ، وأخرى تمد الى البعيد ، وهي في حاجة الى كل منهما ولا تنتفع باحداهما حتى يتم لها الانتفاع بالاخرى. فالعلم الصحيح مقوم الوجدان ، والوجدان السليم من أشد أعوان العلم ، والدين الكامل علم وذوق ، عقل وقلب ، برهان وإذعان ، فكر ووجدان ، فإذا اقتصر دين على أحد الامرين فقد سقطت احدى قائمتيه وهيهات ان يقوم على الاخرى . ولن يتخالف العقل والوجدان حتى يكون الانسان الواحد إنسانين، والوجود الفرد وجودين،

قد يدرك عقلك الضرر في عمل ولكنك تعمله طوعا لوجدانك ، وربما أيقنت المنفعة في أمر وأعرضت عنه إجابة لدافع من سريرتك ، فتقول : إن هذا يدل على تخالف العقل والوجدان . ولكني أقول : إن هذه حجة من لا يعرف نفسه ولا غيره . عليك ان ترجع الى نفسك فتتحقق من أحد الامرين – إما ان يقينك ليس بيقين وانه صورة عرضت عليك من قول غيرك فأنت تظنها علما وما هي به . واما أن وجدانك

وهم تمكن فيك، وعادة رسخت فى مكان القوة منك ، وليس بالوجدان الصحيح وانما هو عادة ورثتها عمن حولك وظننتها شعورا منبهه العزة وما هي منه في شيء .

(نتيجة) لا بد أن ينتهي أمر العالم الى تآخي العلم والدين على سنة القرآن والذكر الحكيم ؛ ويأخذ العالمون بمعنى الحديث الذي صح معناه(١) «تفكروا فى خلق الله ولا تفكروا فى ذات الله» وعند ذلك يكون الله قد أتم نوره ولو كره الكافرون، (٢) وتبعهم

(١) المنار – قال العراقي: رواه أبو نعيم في الحلية بالمرفوع منه باسناد ضعيف ورواه الاصبهاني في الترغيب والترهيب من وجه آخر أصح منه . ورواه الطبراني فى الاوسط والبيهقي في الشعب من حديث بن عمر وقال: هذا إسناد فيه نظر . قلت فيه الوازع بن نافع متروك . وقال الزبيدي في شرح الاحياء : قلت حديث ابن عمر لفظه «تفكروا فى آلاء الله ولا تفكروا فى الله» هكذا رواه ابن أبي الدنيا في كتاب التفكر وأبو الشيخ في العظمة والطبراني فى الاوسط وابن عدي وابن مردويه والبيهقي وضعفه والاصبهاني وأبو نصر في الابانة وقال غريب . ورواه أبو الشيخ من حديث ابن عباس «تفكروا في الخلق ولا تفكروا فى الخالق فانكم لا تقدرون قدره» ورواه ابن النجار والرافعي من حديث أبي هريرة «تفكروا فى خلق الله ولا تفكروا في الله» الخ . وتعدد هذه الروايات واجتماعها يكسبها قوة والمعنى صحيح كما قال الحافظ السخاوي فى المقاصد

(٢) الكافر من يرى الدليل فيجحده ولا ينظر فيه أو ينظر فيعرف

الجامدون القانطون ، وليس بينك وبين ما أعدك به الا الزمان الذي لابد منه فى تنبيه الغافل ، وتعليم الجاهل ، وتوضيح المنهج ، وتقويم الأعوج ، وهو ما تقتضيه السنة الالهية فى التدريج « سُنَّةُ اللهِ فى الذين خلوا من قبلُ ولن تجدَ لسُنَّةِ اللهِ تبديلا » . « انهم يرونه بعيدا ونراه قريبا» . « ان تنصروا الله ينصُرْكم ويثبّتْ أقدامكم » وهو خير الناصرين .

(حرية العلم فى أوربا الآن . ونسبتها إلى الماضي والحاضر فى الاسلام)
(وهو المقال السادس لذلك الامام الحكيم)

لم يبق علينا من الكلام الا ما يتعلق بالأمر الرابع مما ذكرته الجامعة (١) وهو « ان تمكن العلم والفلسفة من التغلب على الاضطهاد المسيحي في أوربا وعدم تمكنها من التغلب على الاضطهاد الاسلامي دليل واقعي على أن النصرانية كانت أكثر تسامحا مع الفلسفة »

ليس من السهل عليّ أن أعتقد أن أديبا كصاحب

الحق ثم يماري فيه وينكره عناداً . اه من هامش الاصل (١) يذكر القراء ان كلام الجامعة في الطعن بالاسلام كان مبنياً على أربعة أمور تقدم الرد على ثلاثة منها وفي هذا المقال الرد على الرابع

الجامعة يقول هذا القول وهو ناظر إلى الحقيقة بكلتا عينيه مع معرفته بلسان الغربيين واطلاعه على ما كتبوا فى هذه المسألة وهي من أهم المسائل التاريخية . وإنما هي عين الرضى تناولت من حاضر الحال ومما انتهى اليه سير التاريخ ما تناولت ثم أملت على قلبه ماجرى به قلمه

هل يصح ان تسمى الاستكانة للغالب تسامحا ؛ وهل يسمى العجز مع التطلع للنزاع عند القدرة حلما ، أم يسمى غل الأيدي عن الشر بوسائل القهر كرما ؛ هل تمدمسا كنة جناب البابا الملك إيطاليا فى مدينة واحدة واجتماع الكرسيين العظيمين كرسي المملكة الايطالية وكرسي المملكة البابوية فى عاصمة واحدة تسامحا من قداسة البابا مع الملك ؛ أليس الأجدر بالمنصف أن يسمِّيَ ذلك تسامحا من الملك مع البابا لانه صاحب القوة والجيش والسلطنة ويمكنه أن يسلب البابا تلك الثمالة التي بقيت له من السلطة الملكية ؛ كما أن الأليق به أن يسمي تلك الحالة التي عليها أهل أوربا اليوم من طمأنينة العلم بينهم بجانب الدين تساهلا من العلم مع الدين لا تسامحا من الدين مع العلم بعدما كان بينهما من الحوادث ما كان وبعد غلبة العلم واستيلائه على عرش

السلطان في جميع الممالك ورضاء الدين بأن يكون تابعا له فى أغلبها

(اقتباس مدينة اوربا من الاسلام • واسباب ظهورها التام)

السبب الاول الجمعيات : كان جلاد بين العلم والدين في أوربا وتألفت لنصرة العلم جمعيات وأحزاب منها ما اتخذ السر حجابا له حتى يقوى ومنها ما أبتدأ بالمجاهرة • وكان الدين يظفر بالعلم كما سبق بيانه لكثرة أعوانه وضعف أعوان العلم حتى أشرقت الآداب المحمدية على تلك البلاد من سماء الاندلس وتبع اشراق تلك الآداب واشتغال الناس بها سطوع نور العلم العربي من الجانب الشرقي كما ذكرنا . وقد وجد هذان النوران استمدادا من النفوس للاستضاءة بهما فى السبيل التي تؤدي بهما الى المدنية التي كانا يحملانها • هذا الاستمداد كسبته الانفس بما ضايقها من غلو رؤساء الدين فى استعمال سلطانهم واشتدادهم فى استعباد العقل والوجدان حتى ضاق ذرع الفطرة عن الاحتمال فأخذ الشعور الانساني يتلمس السبيل الى الخلاص وإذلاح له هذان النوران اتخذهما له هداية واستقبلهما بوجهه وكان بعد ذلك ما كان من تأثر الدين لأهل العلم واحراقهم بالنيران ، ونفيهم من الاوطان ، ومقاومة رؤساء الدين للحكومات ولاهل

الافكار المستقلة في أدنى الاشياء وأعلاها حتّى إنه عندما شرع ملوك فرنسا في فرش شوارع باريس بالبلاط على الاسلوب الذي وجدوه في مدينة قرطبة وصدر الأمر بمنع تربية الخنازير في تلك الشوارع أغضب ذلك قسوس القديس أنطوان ونادوا بان خنازير القديس لا بد ان تمر في الشوارع على حريتها الاولى . وحصل لذلك شغب عظيم اضطر الحكومة أن تسمح بذلك مع صدور الامر بأن توضع في أعناقها أجراس. وقالوا ان الملك فيليب السمين مات بسقطة عن فرسه عند ما انزعج الفرس من منظر خنزير وصلصلة الجرس في عنقه

لقائل ان يقول : ان القسوس في ذلك الزمان كان يمكنهم ان يمتنعوا من وضع الاجراس في أعناق الخنازير فرضاهم بذلك يعد تسامحا عظيما مع العلم (أو الصناعة) ويسهل عليّ ان أوافقه على ان مثل هذا الضرب من التسامح في أجراس الخنازير كان يظهر من حين الى حين الا أنه فيما أظن لا يكفي في تشييد هذه المدنية التي يفتخر بها الاوربيون اليوم ونحن لا نبخسها قدرها كذلك

السبب الثاني الضغط الديني : شدة الحاجة وغلو الرؤساء كانا يوقدان الغيرة في قلوب طلاب العلوم فلم تفتر لهم همة فعظم أمرهم

وا كتشفوا كثيراً من الحقائق التي تعمت العامة وتنبهت العقول للاخذ بما يهتدون اليه وصارت الحرب بينهم وبين رؤساء الدين سجالا الى ان ظهر دعاة الاصلاح الديني (البروتستانت) فانضم دعاة العلم اليهم ظنا منهم ان سيكونون معهم من المجاهدين في سبيل العلم . وكان منهم ايراسم الشهير فلما انتصر طلاب الاصلاح ودالت لهم دولة استمروا يعاقبون بالموت على الافكار التي تخالف ظاهر مايعتقدون كما تقدم فانفصل ايراسم ومن معه من حماة الحرية واستقلال الارادة الشخصية وترك المصلحين يتفرقون شيعا ويقتل بعضهم بعضا وقال : ما كنت أظن ان دعاة الاصلاح يكونون كذلك أعداء العلم

هذه الطوائف التي تفرقت عقائدها في الاصلاح لم تنتظر الا ان تأمن عدوها العام وهو الكنيسة الكاثوليكية الرومانية فلما أمنتها أخذ بعضها يصول على بعض واشتعلت نيران الحروب بينهم . قال أحد أفاضل مؤرخيهم . « وكلما ارتفعت طائفة منهم الى عرش القوة لوثت يديها بالجرائم في العمل لافناء البقية حتى سئمت النفوس دوام تلك الحال ووجدت من توالي حوادث الانتقام وظهور مضارّه في كل طائفة ان الافضل لكل

طائفة ان تمنح الاخرى من الحرية ما لا تستغني عنه واحدة منهما. والعلم كان يعمل عمله في كشف الحقائق وترقية الآداب وكان من أقوى المنبهات الى مضار الحروب ومفاسد العدوان على حرية الاشخاص من أي طائفة كانت.. من هذا انشأ ذلك الاصل العظيم أصل التسامح والرضى بمجاورة المخالف في الرأي. نشأ من القهر والقسوة التي كانت كل طائفة تعامل بها الاخرى» انتهى كلام المؤرخ بالمعنى

السبب الثالث الثورة : ولا حاجة بي الى ذكر ما جاءت به الثورة الفرنسية وكيف كانت قيامتها على الدين ورؤسائه مما هو معلوم . وإنما أنبه القارىء الى الاعتبار بما تقدم من القول، وبما يمكنه ان يقف عليه في كتب القوم ، ليعلم ان الدين المسيحي في أوربا لم يحتمل العلم فضلا وكرما، وإنما قويت عليه أحزاب العلم فساموه استكانة وخضوعا ، ولو شاء ان لا يحتمل لم يستطع الى ذلك سبيلا .

السبب الرابع ترك المسيحية : رؤساء الدين المسيحي رجال ذوو عزيمة وإقدام وغيرة على دينهم قلما يدانيهم فيها رؤساء دين من الأديان. وهم مع غلوهم في الدين واشتدادهم في استعمال

سلطانهم على النفوس كانوا ولا يزالون يتخذون كل وسيلة لتأييد دينهم . وهم أشد الناس حرصا على تقويم أركانه ودفع الشبه عنه ولم يزدهم العلم الجديد الا وسائل وسبلا لترويج عقائده وآدابه ولم تفتر لهم همة في نشره وتزيينه للقلوب . ومع ذلك كله نرى ان رجال العلم وحماة المدنية يتسللون منه ، والعامة من الشعوب في تخاذل عنه ، والامة الفرنسية التي كانت تدعى بنت الكنيسة أصبحت من أشد الناس عليه ، ورأت فلسفتها أن تحدد حرية أهل الدين في تعاليمهم واجتماعهم كل ذلك ومدارس اللاهوت لا تزال عامرة وطلاب اللاهوت يعدون بالألوف كل ذلك وكثير من الدول ترى من مزاياها حماية الدين المسيحي في أقطار الأرض . قال أحد رؤساء البروتستان في خطبة من خطبه التي ألقاها في بعض البلاد الفرنسية سنة ١٩٠١ بعد كلام له في ان المسيحية رومانية أو بروتستانيه فقدت خاصتها الدينية كما فقدت فائدتها الاجتماعية ما نصه مترجما : « اذا كان الدين المسيحي ليس شيئا سوى الكثلكة المحتاجة الى الاصلاح (المذهب الروماني) أو الكثلكة التي دخلها الاصلاح بالفعل (المذهب البروتستنتي) فالقرن

الموفق للمشرين (القرن الحاضر) لا يكون مسيحيا أبدا »

وقد جاء فى كلام هذا الخطيب مايصرّح بأنه يريد أن يطلب للمسيحية معنى آخر ينطبق كل الانطباق على اعتقاد المسلمين فيها فان وفق للنجاح فى سعيه زال الخلاف - ان شاءالله- بين الدين والعلم بل بين المسيحية والاسلام

عود الى سماحة الاسلام : آخذ بيد القارىء الآن ، وأرجع به الي مامضى من الزمان ، وأقف به وقفة بين يدي خلفاء بني أمية والائمة من بني العباس ووزرائهم ، والفقهاء والمتكلمون والمحدثون والائمة المجتهدون من حولهم ، والادباء والمؤرخين والاطباء والفلكيون والرياضيون والجغرافيون والطبيعيون وسائر أهل النظر من كل قبيل مطيفون بهم ، وكلٌّ مقبل على عمله ، فاذا فرغ عامل من العمل أقبل على أخيه ووضع يده فى يده ، يصافح الفقيه المتكلم والمحدثُ الطبيبَ والمجتهدُ الرياضيَّ والحكيمَ وكلٌّ يرى فى صاحبه عونا على مايشتغل هو به . وهكذا أدخل به بيتا من بيوت العلم فأجد جميع هؤلاء سواء فى ذلك البيت يتحادثون ويتباحثون والامام البخاري حافظ السنة بين يدي عمران بن حطان الخارجي يأخذ عنه الحديث وعمر و بن عبيد

رئيس المعتزلة بين يدي الحسن البصري شيخ السنة من التابعين يتلقى عنه وقد سئل الحسن عنه فقال للسائل: «لقد سألت عن رجل كأن الملائكة أدبته، وكأن الانبياء ربته، إن قام بأمر قعد به، وان قعد بأمر قام به، وان أمر بشيء كان ألزم الناس له، وان نهي عن شيء كان اترك الناس له، مارأيت ظاهرا أشبه بباطن منه، ولا باطنا أشبه بظاهر منه،» بل أرفع بصري فأجد الامام أباحنيفة أمام الإمام زيد بن علي (صاحب مذهب الزيدية من الشيعة) يتعلم منه أصول العقائد والفقه ولا يجد أحدهم من الآخر الا مايجد صاحب الرأي في حادثة ممن ينازعه فيه اجتهاداً في بيان المصلحة وهما من أهل بيت واحد - أمرُّ به بين تلك الصفوف التي كانت تختلف وجهتها في الطلب وغايتها واحدة وهي العلم. وعقيدة كل واحد منهم أن فكر ساعة خير من عبادة ستين سنة كما ورد في بعض الاحاديث(١)

---

(١) المنار : رواه ابو الشيخ ابن حبان في العظمة عن ابي هريرة بسند ضعيف، ورواه عن طريقه ابن الجوزي في الموضوعات . ولكن له روايات اخرى منها رواية الديلمي في مسند الفردوس عن انس بلفظ (ثمانين سنة) وفي رواية موقوفة على ابن عباس «خير من قيام ليلة» ولشهرة هذا المعنى قال الغزالي وردت السنة بكذا

الخلفاء أئمة فى الدين مجتهدون وبأيديهم القوة وتحت أمرهم الجيش ، والفقهاء والمحدثون والمتكلمون والأئمة المجتهدون الآخرون هم قادة أهل الدين ومن جند الخلفاء ، الدين فى قوته والعقيدة في أوج سلطانها وسائر العلماء ممن ذكرنا بعدهم يتمتعون في أكنافهم بالخير والسعادة ورفه العيش وحرية الفكر لا فرق في ذلك بين من كان من دينهم ومن كان من دين آخر فهنا لك يشير القارىء المنصف الى أولئك المسلمين ، وأنصار ذلك الدين ، ويقول : ههنا يطلق اسم التسامح مع العلم فى حقيقته ، ههنا يوصف الدين بالكرم والحلم ، ههنا يعرف كيف يتفق الدين مع المدنية ، عن هؤلاء العلماء الحكماء تؤخذ فنون الحرية فى النظر ، ومنهم تهبط روح المسالمة بين العقل والوجدان (أو بين العقل والقلب كما يقولون)

يرى القارىء انه لم يكن جلاد بين العلم والدين . وانما كان بين أهل العلم أو بين أهل الدين شيء من التخالف فى الآراء شأن الاحرار في الافكار الذين أطلقوا من غل التقييد وعوفوا من علة التقليد ، ولم يكن يجري فيما بينهم اللمز والتنابز بالالقاب فلا يقول أحد منهم لآخر انه زنديق أو كافر أو مبتدع

أومايشبه ذلك . ولا تتناول أحدا منهم يد بأذى الا اذا خرج عن نظام الجماعة وطلب الإخلال بأمن العامة فكان كالعضو المجذّم فيقطع ليذهب ضرره عن البدن كله

(ملازمة العلم للدين • وعدوى التعصب فى المسلمين)

متى ولع المسلمون بالتكفير والتفسيق ، ورُمِيَ زيد بأنه مبتدع وعمرو بأنه زنديق ، ؟ أشرنا فيما سبق فى مبدإ هـذا المرض ونقول الآن ان ذلك بدأ فيهم عند مابدأ الضعف فى الدين يظهر بينهم وأ كات الفتن أهل البصيرة من أهله (تلك الفتن التي كان يثيرها أعداء الدين فى الشرق وفى الغرب لخفض سلطانه، وتوهين أركانه)وتصدر للقول فى الدين برأيه من لم تمتزج روحه بروح الدين ، وأخذ المسلمون يظنون أن من البدع فى الدين ما يحسن احداثه لتعظيم شأنه تقليـدا لمن كان بين أيديهم من الأمم المسيحية وغيرها ، وأنشأوا ينسون ماضي الدين ومقالات سلفهم فيـه ويكتفون برأي من يرونه من المتصدرين المتعالمين، وتولى شؤون المسلمين جهالهم، وقام بارشادهم فى الاغلب ضُلاَّلهم، في اثناء ذلك حدث الغلوُّ فى الدين واستعرت نيران المداوات بين النظّار فيه وسهل على كل منهم لجهله بدينه

ان يرمي الآخر بالمروق منه لأدنى سبب • وكلما ازدادوا جهلا بدينهم ازدادوا غلوا فيه بالباطل ودخل العلم والفكر والنظر (وهي لوازم الدين الاسلامي) في جملة ما كرهوه ، وانقلب عندهم ما كان واجبا من الدين محظورا فيه

لأكاداخطِّىء القارىءاذا زعم ان المسلم إنما استفاد اسم زندقة وتزندق ومتزندق وزنديق من فضل ما علمه جيرانه اذا كانوا يقولون : هرتقة وتهرتق وهو هرتوقي : أو مايماثل ذلك • أو زعم ان قد فشت في المسلمين سرعة التكفير بطريق العدوى من أهل الملل المتشددة وان الذي سهل سريان العدوى بتلك السرعة الشديدة هو ضعف المزاج الديني عند المسلمين بجهلهم بأصوله ومقوماته ومتى ضعف المزاج استعد لقبول المرض كما هو معلوم •

ان المسلمين لما كانوا علماء في دينهم كانوا علماء الكون وأئمة العالم . أصيبوا بمرض الجهل بدينهم فانهزموا من الوجود وأصبحوا أكلة الآكل ، وطُعمة الطاعم ، هل وقف الجهل بالمسلمين عند تكفير من يخالفهم في مسائل الدين أو بمذهب مذهب الفلاسفة أو مايقرب من ذلك ؟ لا بل عدابهم الجهل على

ائمة الدين وخدمة السنة والكتاب فقد حملت كتب الامام الغزالي الى غرناطة وبعدما انتفع بها المسلمون أزمانا هاج الجهل بأهل تلك المدينة وانطلقت ألسنة المتعالمين من البربر بتفسيقه وتضليله فجمعت تلك الكتب خصوصا نسخ « إحياء علوم الدين » ووضعت فى الشارع العام فى المدينة وأحرقت . قال قوم يعدون أنفسهم مسلمين فى ابن تيمية ـ وهو أعلم الناس بالسنة وأشدهم غيرة على الدين ـ : انه ضال مضل : وجاء على أثر هؤلاء مقلدون يملأون أفواههم بهذه الشتائم وعليهم اثمها وإثم من يقفوهم بها الى يوم القيامة

اهمال آثار السلف . وحال علوم الدين وطلابها

أهمل المسلمون علوم دينهم والنظر فى أقوال سلفهم حتى انك لاتجد اليوم فى أيديهم كتابا من كتب أبي الحسن الاشعري ولا أبي منصور الماتريدي ولا تكاد ترى مؤلفا من مؤلفات أبي بكر الباقلاني أو أبي اسحاق الاسفرايني . واذا بحثت عن كتب هؤلاء الائمة فى مكاتب المسلمين أعياك البحث ولا تكاد تجد نسخة صحيحة من كتاب . كتب على القرآن تفاسير كثيرة فى القرن الثالث من الهجرة وما بعده الى السادس منها

تفسير الطبري وتفسير أبي مسلم الاصفهاني وتفسير القرطبي وتفسير الجصاص وتفسير الغزالي وتفسير أبي بكر ابن العربي وكثير غيرها وفيها من آراء اولئك الأئمة ووجوه استنباط الحكم والاحكام مالاغنى لطالب علم الدين عنه . فهل يجد الباحث المجد نسخة من هذه الكتب الجليلة يمكن الوثوق بصحتها إلا بطريق المصادفة وحسن الاتفاق ؟ وهل يليق بأمة تدعي أنها على دين وأن لها فيه سلفا صالحا أن تهجر آثار سلفها وتدع ما كتبوا طعمة للعث وفراشا للتراب ؟ هل وقع مثل ذلك من المشتغلين باللاهوت المسيحي في زمن من الأزمان ؟

ان حالة طلبة العلوم الدينية الاسلامية أصبحت مما يرثى له في أكثر بلاد المسلمين فهم لا يقرأون من كتب الكلام الا مختصرات مما كتب المتأخرون يتعلم أذكاهم منها ما تدل عليه عباراتها ولا يستطيع ان يتعلم البحث في أدلتها وتصحيح مقدماتها وتمييز صحيحها من باطلها وإنما يتلقاها كأنها كتاب الله أو كلام نبيه صلى الله عليه وآله وسلم يأخذ مافيها بالتسليم . فاذا ناظره مناظر في بعض قضاياها وعجز من تصحيحه قطع الجدال بقوله هكذا قالوا وإن لم يكن القول متفقا عليه بل قد

يكون القول مما لم يقل به سوى صاحب الكتاب الذي اشتغل به وربما كان صاحب الكتاب ممن لو رآه أحد من السلف لم يرضه تلميذاً يعي عنه ما يقول .

كاد ينقطع طلب العلوم الدينية في سوريا والحجاز وتونس والجزائر وقل جداً في المغرب الاقصى ولم يبق الاهتمام به الا في بعض الصحارى وذلك إما لصعوبة طرق التعليم واقتضائها الزمن الطويل وحاجات الناس مانعة لهم من إفناء أعمارهم في عمل لا يسد من حاجتهم. وإما لتفضيل الآباء تربية أبنائهم على الطرق الحديثة في أوربا أو في المدارس الاخرى وليس فيها من الدين شيء وان كان فيها شيء منه فهو مما لا يعد تعليماً دينياً ينظر اليه . وإما للفتور والخمود، الذي نشأ عن التقليد والجمود، وبذلك تجد المسلمين قد تولاهم الجهل بدينهم ، وأخذتهم البدع من جميع جوانبهم، وانقطعت الصلة الحقيقية بينهم وبين سلفهم ، حتى لو عرض على الجمهور الاعظم منهم ما اتفق عليه السلف من الأحكام لأنكروه واستغربوه وعدوه بدعة في الدين وصح فيهم ما قال عمر الخيام في بعض أشعاره الفارسية مخاطباً النبي عليه الصلاة والسلام : « ان الذين جاؤا بعدك زينوا لك دينك ووشوه

وزركشوه حتى لو رأيته أنت لأنكرته» فهذا الصنف من المسلمين وهو معظمهم قد أنكر دينه الحق وعاداه ونقم على أهله إنقاميين بخدمته وانما اصطفى لاعتقاده بعض أفراد لم يعرف عن السلف اختصاصهم بالثقة ولم يسمح الدين باختصاصهم بالتقليد فاذا وقع عن هذ الصنف مافيه أذى للعلم وأهله فهل يعد ذلك واقعا من دين الاسلام ـ دين محمد صلى الله عليه وسلم ـ دين القرآن ـ دين السنة الثابتة ـ دين الخلفاء الراشدين ومن تبعهم من السلف الأولين ؟؟

مثابعة العلم الاسلام ومباينته لسواه : الحقّ أقول والحسُّ يؤيدني :

ماعادوا العلم ولا العلم عاداهم الا من يوم انحرافهم عن دينهم وأخذهم في الصدّ عن علمه فكلما بعد عنهم علم الدين بعد عنهم علم الدنيا وحرموا ثمار العقل . وكانوا كلما توسعوا في العلوم الدينية، توسعوا في العلوم الكونية، وضربوا الزمان بسوط من العزّة، أما غيرهم فكلما اتصلوا بالدين وجدّوا في المحافظة عليه أنكرهم العلم وتجهمهم وأكفهرّ وجهه للقائهم . وكلما بعدوا من الدين سالمهم العلم، بشّ في وجوههم ولذلك يصرحون بأن العلم من ثمار العقل والعقل لا يصح ان يكون له في الدين عمل، ولا أن يظهر منه فيه

أثر، والدين من وجدانات القلب ولا علاقة بين ما يجد القلب وما يكسب العقل · فالفصل تامٌّ بين العقل والدين ولا سبيل الى الجمع بينهما : سامحهم الله فيما يسمونه تسامح العلم ، وهم يصرحون بأنه عدوه الذي يستحيل ان يكون بينه وبينه سلم ،

هل عرفت السبب فى اضطهاد المسلمين للعلم ؟ أقول (اضطهاد) ولا أريد به ما كان عند الامم المسيحية من الاشتداد في إبادة أهله والتنكيل بهم واختراع ضروب التعذيب والتفنن فى صنع آلات الهلاك مع الأخذ بالشبهة ، والاكتفاء فى الإعدام بمجرد التهمة ، فان ذلك لم يقع عند المسلمين لا أيام علمهم ، ولا فى أزمنة جهلهم ، ولكن أريد من الاضطهاد الإعراض عن العلم ورمي الألفاظ السخيفة فى وجوه أهله وقذفهم بشيء من الشتائم مع الابتعاد عنهم . لا ريب أنك قد أيقنت بأن السبب فى هذا الذي يسميه الأديب اضطهادا انما هو جهلهم بدينهم · فالدواء الذي ينجع فى شفائهم من هذا الداء لا يكون إلا ردّهم الى العلم بدينهم والتبصر فيه الموقوف على أسراره والوصول الى حقيقة ما يدعو اليه · كان الدين واسطة التعارف بينهم وبين العلم فلما ذهبت الواسطة تناكرت النفوس وتبدل الأنس وحشة

الدعاة في الاسلام : فهل قام بينهم دعاة للعلم حقيقيون ، أو دعاة لأصل الدين عارفون ، ثم استعصت قلوب المسلمين عليهم ، وجمحت نفوسهم عن الانقياد لهم ؟ وهل كثر أولئك الدعاة في أطراف بلاد المسلمين كثرتهم في أوربا من أواسط القرن السابع عشر من التاريخ المسيحي الى ان ظهرت قوة العلم في أوائل القرن السابع عشر وفيما بعد ذلك ؟ لا ، انما رأينا من الصادقين أفرادا يظهرون متفرقين في عصور مختلفة ربما لا يجتمع أربعة منهم فما يزيد في قرن واحد ويأخذون في العمل لما وجهوا اليه ثم لا يكادون ينطقون ببعض الكلام فيحس الناس بهم فيأخذ المستعد أهبته لمفارقة ما كان عليه واتباعهم حتى تشعر السياسة (نعوذ بالله منها) بما عسى أن يكون من أمرهم فتخمد انفاسهم ، قبل ان يبلغوا من قلب احد ما أرادوا من غرس أفكارهم ، فينطفئ النور ، وَيَدْلَهِمُّ الدَّيجُور ، فهل يعد الاديب هذه الضربات من أيدي أرباب السياسة اضطهادا للعلم لأجل حماية الدين ؟ أنزه كل أديب عن ان يظن ذلك وانما هي صدمات تقع على الدين لا تختلف عن أمثالها مما يصيبه منهم مباشرة ولا تعد حجة على الدين في نظر المنصف

المقلِّد دون المقلَّد: ربما يقول القائل: ان كان المسلمون قد أخذوا الجمود فى التقليد والنفرة من العلم والاعتقاد بالمعاداة بين الدنيا والآخرة وبين العقل والدين وماأشبه ذلك مما هم فيه وورثوه عن الامم السابقة عليهم، خصوصا أقرب الملل اليهم، فمابالهم لم يقلدوا المسيحيين فى الحرص على نشر دينهم والتوسع فى علومه مذيلا بما أخذوه عنهم ولم يقسموا انفسهم قسمين كما قسم المسيحيون اخوانهم قسمين قسما ينقطع الى الآخرة فى الاديار والصوامع وقسما يشتغل بالدنيا ليقيت نفسه ويقيت أهل القسم الاول ويحمي نفسه ويحميهم من العدوان؟ وما لك ترى المسلمين خملوا وارتخت أعصابهم وسئموا النظر فى علوم دينهم كما ذكرت ثم صاروا أبعد الناس عن معرفة الطرق لتحصيل الغنى والثروة، والقبض على ناصية القوة وصولجان العزة؟ وطرحوا انفسهم فى تيار من القدر كما يقولون، يجري بهم الى حيث لا يعلمون؟ ثم هم مع ذلك أحرص الناس على حياة، وأشدهم لهفا على الحطام، فلا ترى الجمهور منهم فى شيء للدين ولا للدنيا فما هذا التناقض؟

فأقول له: انك قد نسيت ان المقلِّد يكون دائما أحط

حالا وأخس منزلة من المقلَّد . فالمقلِّد انما ينظرُ من عمل المقلَّد الى ظاهره ولا يدري سره ولا مابني عليه . فهو يعمل على غير نظام ، ويأخذ الأمر لا على قاعدة ، ولذلك سقط المسلمون في شر مما كان عليه مقلَّدوهم لاسيما انهم قد خلطوا في التقليد وأضافوا الى دينهم مالا يمكن ان يتفق معه فصاروا في مثل حال المتخبط الذي تَنَازعَهُ عدة قوى يذهب مع كل منها آنا ثم ينتهي أمره بعد الخيبة بالتعب الشديد فيتاتي الى أن يستريح فينهض إلى العمل على هدى أو يموت . لما كان المسلمون علماء كانت لهم عينان عين تنظر إلى الدنيا والاُخرى تنظر الى الآخرة فلما طفقوا يقلدون أغمضوا إحدى العينين وأقذوا الاُخرى بما هو أجنبي عنهم ففقدوا المطلبين ولن يجدوهما إلا بفتح ما أغمضوا وتطهير ما أقذوا

الاصلاح والمصلحون : للقائل أن يقول : كيف تدعي أن دعاة العلم والدين قليل بين المسلمين مع أنا نسمع أصواتهم تتلاقى في جوّ مصر وسوريا وغيرهما من البلاد في هذه الايام . كلٌ يقول: ديني ملتي : إسلام مسلمون: قرآن سنة : مجد الاسلام القديم. سلفه الصالحون: تعلم تعليم: كتب قديمة كتب جديدة: ومابشا كل ذلك مما يظهر منه ان الداعين الى العلم أو المنبهين إلى الاخذ بأصول

الدين الاسلامي كثيرون ولا نرى مع ذلك من أغلب المسلمين الا آذانا صمًّا واعينا عميا وصدًّا عما يدعو اليه هؤلاء؟ ويمكنني أن أقول له: ان الصادق في هؤلاء ليس بكثير عدده، والجمهور منهم قلما يخلص قصده، وما تجد أكثرهم الا متجرين بهذه الكلمات، لكسب بعض دريهمات، ويظهر لك ذلك من أنهم يلفظون هذه الاسماء وقلما يدرسون شيأ من مدلولاتها ليقفوا على الحقيقة منه وانما يلقف بعضهم من بعض ظواهر كالزبد لا تمكث في الارض. اما الصادقون على قلتهم فقد بدأ بعض الناس يسمعون ما يقولون، ويطلبون الرشاد مما يعلمون، خصوصا في أمر الدين والجمع بينه وبين مصالح الدنيا لاسيما في بلاد الهند وبين مسلمي روسيا. ولكن الاصلاح ليس ريحا تهب فتمسح الارض من الشرق الى الغرب في وقت قريب فانتظر

قد يقول القائل: لِمَ لمْ يكثر هؤلاء كثرتهم بين الاوربيين فيما مضى حتى يغلبوا الظالمين من أهل السياسة ويستميلوا العادلين منهم اليهم، وينهضوا بالمسلمين من هذه الرقدة التي طال أمدها عليهم؟، ولم لا يزال أهل البصيرة منهم قليلين متفرقين يهمسون بالقول ولا يجهرون، وليس للعلم فيهم دعاة

عمليون » ، أليس ذلك سبيلا لمؤاخذة الاسلام وحجة عليه؟؟
وأقول له : ان حظ المسلمين لا يصح ان يكون اسعد من حظ مقلديهم بل المنتظر ان يكون أتعس وقد أقامت المسيحية ما يزيد على ألف سنة قبل ان يظهر فيها العلم أو تنشأ الحرية الشخصية، أو تسري فيها الحركة العلمية ، الى ما فيه صلاح الجمعية الانسانية، مع توالي المنبهات، وتواصل الصدمات إثر الصدمات، ولم يمض على المسلمين من يوم استحكمت فيهم البدعة وأطبقت عليهم ظلم الحدثات ودخلوا جحر الضب الذي دخله من كان قبلهم الا أقل من ثمانمائة سنة فلم يمض عليهم وهم فى بدعهم الجديد ذلك الزمن الذي قد يكون عمرا لمثل هذه الحالة ثم تقضي نحبها فى آخره . وما أظن ان يمر على المسلمين مثل تلك المدة قبل ان يبلغوا من صلاح الدين والدنيا ماهم أهل له

الفرق بين التعصبين : وعلى كل حال لا يجوز فى شريعة الانصاف ان يذكر المسلمون فى جانب جمهور المسيحيين اذا ذكر الغلو فى التعصب الديني فضلا عن ان يقال ان المسلمين أشد إفراطا فيه . والشاهد يدلنا على انه قد يكون للمسلمين فى التعصب ألفاظ وكلمات ، ولكن الذي يكون من جمهور المسيحيين إنما هو

أعمال وضربات في المعاملات، وما على طالب الحقيقة الا ان يسيح بفكره فى المستعمرات الهولاندية فى الشرق ومثل مملكة الترنسفال قبل سقوطها وبلاد الناتال فى الجنوب ثم يرجع الى بعض بلاد الروسيا فى الشمال من قبل عشرين سنة ثم يرجع الى الجزائر وما يليها فى جهة الغرب ليعلم كيف تكون الشدة في المعاملة مع غير أهل المذاهب المسيحية وكيف يبلغ التعصب من أهله حدا تنظر اليهم فيه الانسانية شزرا، ولا تقبل لهم فيه المدنية عذرا،

ما على الباحث الآن ينظر فيما يكتبه الكتاب الفرنسيون ليعلم انهم فى حيرة من أمرهم مع المسلمين، يريدون ان تكون لحكومتهم طمأنينة فيما ملكت من بلاد المسلمين ولكن حكومتهم لا تجد السبيل اليها مع ما اتخذته قاعدة لعملها وهو الشدة والافراط فى القسوة على المسلمين خاصة وحدهم دون سواهم. وأرباب الاقلام يبحثون عن تلك الطمأنينة مع المحافظة على تلك القسوة ويأبى الله أن يعثرهم على ما يبحثون عنه لانهم يطلبون الجمع بين الضدين فى موضوع واحد وهو محال كما يقرره فلاسفتهم

رأي هانوتو الاخير في معاملة المسلمين

موسيو هانوتو أطلق لقلمه من سنوات ان يجري في البحث عن طريقة حكم المسلمين وقاعدة لمعاملتهم في البلاد التي يحكمها الفرنسيون وجاء في فصول مقاله بما لا يزال يذكره القراء . ثم بعد ان قتل المسألة علما ثلاث سنين، ورأى سوء تأثير قوله في المسلمين، ورجع الى موضوع البحث هذه السنة بلسان غير الذي كان ينطق به ورأي غير الذي كان يصدر عنه . واني ذاكر ملخص مانقلته الجرائد من خطابه الذي ألقاه في المجمع الجغرافي في شهر مارس من هذه السنة (١٩٠٢م) متعلقا بأفريقيا وأقتصر منه على مايتعلق بما نحن فيه وهو بالمعنى: « ان القواعد الجديدة التي يجب ان يكون عليها العمل في أفريقيا هي مخالفة للقواعد القديمة التي كانت تجري عليها السياسة الاستعمارية فيما مضى من الزمان » (أي قبل ساعة وقوف الخطيب لالقاء خطابه) ثم بين هذه القواعد الجديدة التي يعامل بها المحكومون فقال انها الامن والسلم ثم قال : « إننا مدينون لهم بالعدل والسلم كما اننا مدينون لهم بالتساهل الديني واست أشير الى هذا الموضوع الخطير الذي له علاقة بكل ما يثير النفس البشرية الاشارة خفيفة فأقول : ان التمدن الاوربي

يجد في طريقه فى أفريقيا لاسيا فى شمالها ذلك الدين القديم العظيم الذي هو دين الاسلام والذي هو فى هذه الجهات (شمال أفريقيا) أكثر نشاطا منه في غيرها . وهذا الدين يدعو الى إله واحد ويجعل الايمان بالتوحيد مصدرا لكل الفضائل الذاتية والاجتماعية ويستولي على المؤمن استيلاء شديدا فلا يعود يقدر على التفلت منه . فمن المفروض علينا التساهل فى هذا الشأن بل ليس التساهل بكاف وحده فمن الواجب ان ندرس هذا الدين ونبذل جهدنا فى فهمه . وعلينا ان نتخذ الكلمة الاسلامية « لا إكراه في الدين » شعارا لا نخرج عن حدود معناها . وان نحترم الدين الاسلامي ونحميه من كل طاريء سوء . ولا بأس بذكر كلمة للأمير عبد القادر الجزائري فى هذا المقام وهي: إن أصحاب الاديان الثلاثة يشبهون ثلاثة إخوة من ثلاث أمهات » انتهى محصل كلام هانوتو .

قبل الكلام عليه أسأل القارىء هل سمع مثل هذه الكلمة ممن يماثل الامير عبد القادر في نسبه الى صاحب الرسالة ومقامه فى أهل دينه ومكانته من سلامة العقيدة في مذهبه ؟ أو سمع مايقرب منها ممن لا يدانيه من أهل الملل الاخرى ؟

ترى هانوتو يرشد أهله الى اتخاذ سبيل جديدة في سياسة المسلمين وهذا الجديد هو السلم والأمن والتساهل مع المسلمين في أن يستمروا مسلمين واحترام حقوقهم وتركهم يعملون بدينهم . وعد هذا مبدءا جديدا لم يسبق الجري على مثله . وهل تجيب الحكومة الفرنسية طلبه ؛ مسألة فيها نظر . فهل يليق بمنصف ان يذكر المسلم إذا ذكر التعصب ما دام في الكون مثل هذه لدرجة منه ؛

سياسة الانكليز في التسامح

نعم نحن لا ننكر ان بين الأمم لاوربية أمة تعرف كيف تحكم من ليس على دينها وتعرف كيف تحترم عقائد من تسوسهم وعوائدهم وهي الأمة الانكليزية فهي وحدها لأمة المسيحية التي تقدر التسامح حق قدره . ولا يصعب علينا أن نقول: إن منشأ ذلك أن أمراءها في الحروب الصليبية وقواد جيشها كانوا من أشد الصليبيين علاقة بسلطان المسلمين وأمراء جيشه . وقد امتاز الانكليز في ذلك الزمن المظلم بدرس عقائد المسلمين وعاداتهم فحملوا من ذلك شيئا كثيرا إلى بلادهم ولم تحجبهم غشاوة التعصب عن إبصار ضوء الحق وظهر أثر ذلك في

كثير من كتابهم مثل ولتر سكوت وشيل وغيرهما قبل أن يظهر في أقلام الكاتبين من غير الانكليز بأزمان طويلة . فلنا أن نقول ولا نخشى لائما : إن هذه الخصلة الشريفة ـ خصلة إطلاق الحرية لأهل الدين يتمتعون باداء فرائضه مع احترام ما يحترمون ـ هي من أجلّ الخصال ورثها غير المسلمين عن المسلمين . وهل أجد من يأبى عليّ القول بأن الاسلام السليم من البدع هو أستاذ الانكليز وعنه أخذوا هذه الخلة ؟ الا ترى ان نظامهم فى ذلك يقرب من نظام المسلمين يوم كانوا مسلمين : يكتفون من الناس بالخضوع للقوانين واداء مايفرض عليهم من الضرائب ثم يحفظون نظام العدل بينهم بقدر ماتسمح به السياسة لا يفرقون بين دين ودين . وهكذا كان حال المسلمين وإن كان ذلك على قاعدة أبرّ وأرحم

(خاتمة)

فان قال قائل : أليس لهذا المقال من آخر ؟ أليس فى طول الكلام مجلبة الملَل ، وترويج الكسل ؟ قلت اني أوجه كلامي هذا إلى أهل النهم الى الفهم ، وأرباب الشره الى المعرفة ، ولا أظن هؤلاء الطالبين ماهو أوسع من هذا المقال وأطول

منه اضعافا مضاعفة لأن الموضوع جليل ، والكلام فيه مهما كثر قليل ، واما القارىء الملول ، فعقله مدخول ، وعزمه مفلول ، وفكره مغلول ، وهو قصير الهمة فيما يقصر وفيما يطول ، فلا ينظر اليه فى الخطاب ، ولا يعتدّ به عند الحساب ، ومع ذلك فانا واقف عند هذا الحد . وانتظر بتفصيل القول فى مسألة أمراض الاسلام وآثار البدع والمحدثات فيه والملل التي نشبت بالمسلمين بسببها فرصة أخرى

وقبل ان أترك القارىء أنبهه الى أن ما أجمل فى هذه الفصول لم يقصد به الطعن في حال أحد من الناس ولا طائفة من الطوائف كما يعرفه القارىء نفسه من لباس المعاني وما يكسوها من الادب والتنزه عن كل كلمة تشم منها رائحة العيب على آخر وقد يعلم من هذه النزاهة ان هذا رأي طبخناه لنَطْعَمَهُ بأنفسنا، ونتفق منه على من تلزمنا نفقته من أهلنا ، ولم يكن يخطر ببالنا عند ما أجدنا طبخه ان نفيض منه على غيرنا ، لكن اذا عشا الساري الى ضوء نارنا، وطلب القرى منا، قاسمناه مالدينا، وعرضنا عليه أحر من نفس الحياة، وأهنأ من خلق الأناة، ان شاء الله، اه

﴿ تأثير هذا المقال وتقريظه ﴾

يقول جامع هذا الكتاب وناشره: كتب هذا الامام الكبير مقاله هذا في أيام معدودات ،فجاء كآرى آية من الآيات البينات،ولقد كان لنشره من التأثير في عالم العلم والدين،مالم نره لكلام أحد من الكاتبين، طارت به اغتباطاً قلوب المسلمين ،ولم يبخسه حقه فضلاء المسيحيين ، ورددت صداه المنعكس عن المنار ،بعض الجرائد في مصر وغيرها من الاقطار • قالت جريدة الوطن القبطية الغراء بعدماذكرت انتقاد الجامعة في عدد٢٤١٣: «فهب المنار الاغر ينشر بالتوالي رداً مفحماً طويل الاذيال لامام تغني كنيته عن التصريح باسمه ضمنه تفنيد اقوال الجامعة بحجج دامغة قوية يأتي بالواحدة ثم يعقبها بالشرح والتطويل من التاريخ تارة واقوال العلماء اخرى • ولايزال المؤيد الاغر حتى الساعة يردد صدى هذه الفصول وإذاعة محتوياتها • والرد كما قلنا قوي الحجج متين العبارة لم يسبق فيه واضعه عالم قديم اوحديث »اه المراد منه

وجاء في العدد ٣٢٤ من جريدة المناظر المفيدة التي تطبع في سان باولو (البرازيل) وصاحبها من فضلاء السوريين المسيحيين بعد ذكر نقد الجامعة والرد عليه: «وقد طالعنا رده في مجلة المنار ورأينا في قسم الرد الثاني اي الكلام على أية الديانتين اكثر تساهلاللعلم حججاً حرية بالاعتبار ورأينا انه من المفيد ان يطلع المسيحي على رأي امام مسلم عصري في المسيحية فاخترنا نقله» ثم طفقت هذه الجريدة تنقل هذا المقال فصلا فصلا • وقد رأينا في آخر عدد وصل الينا منها مقالة وجيزة لاديب مسيحي ذكر فيها انتقاد الجامعة ثم قال: «رد عليها الرجل الاسلامي العصري بل رجل الاسلام في هذا الزمان ••• رداً أثبت

به ان الكنيسة المسيحية لم تتساهل قط بالعلم والفلسفة فيستطاع أن يقال ان انتصار العلم في أوربا دليل على كون المسيحية أكثر من الاسلامية تساهلا • ووعد ببيان (لم يصلنا بعد) يرجع به انتصار العلم في أوربا الى اسبابه الحقيقية • فهل اصاب صاحب الجامعه في جعل تساهل المسيحية سبباً لانتصار العلم في أوربه ؟ إذا كانت الكنيسة المسيحية لم تتساهل بل اضطهدت العلم اضطهاداً فالجواب كلا لم يصب صاحب الجامعة • ثم ذكر الكاتب ان سبب القوة والعلم في أوربا يرجع الى طبيعة البلاد وما عرض عليها من ضيقها بسكانها الخ

وكتب الينا عالم مسيحي من سوريا ينتقد الجامعة برأيه ويفضله على أقرانه بحق مانصه : «ماسمى ما كتب الامام في العددين الاخيرين من المنار • يحق لنا أن نفتخر به المسلمون والنصارى معاً • لاتحصروا الفخر به فيكم أيها المسلمون بل فاسمحوا لنا أن نشارككم كما يشارك البروتستني الكاثوليكي في انكلترا بالفخر بأحد علماء بريطانيا » وكتب الينا غيره بمعنى ذلك وان كان بعضهم انتقد بعض ماكتب في النصرانية وقال إن تلك الذنوب للكنيسة لاالدين المسيحي نفسه • ونحن المسلمين نقول بذلك • نقول ان الصورة التي انقلبت اليها ديانة المسيح عليه السلام هي التي نشأ عنها ماتقدم ولو ظلت كما جاء بها المسيح لما كان شيء من ذلك

أما صاحب الجامعة فقد خيب حسن ظننا فيه • ولم يرض باعتذارنا عنه بل اصر على طعنه بالاسلام ، وأضاف اليه الطعن بنا وبالامام ، فرددنا عليه في المنار غير مرة • ثم مرت ثلاثة أشهر بعد ذلك وهذا شهر رابع ولم تصدر الجامعة لنعلم هل هي مصرة على الخصام ، أم ثابت الى الوفاق والوئام • والذي هو اولى بها في دار الاسلام •

ومن لطيف الاتفاق أنه بعد ما كتب هـذا المقال كله ونشر الكثير منه ظهر كتاب انكليزي فيه مقالة لكاتب انكليزي اسمه (مستر كوربت) يدافع فيه عن الاسلام ويشهد بفضله • فجاء قوله شاهداً لما كتب الكاتب عن تسامح الانكليز وتساهلهم

وتختم هذا التقريظ بأبيات أبيات من نظم أحمد أفندي الكاشف الشاعر المشهور بالاجادة يقرظ بها المقال مخاطباً الكاتب وهي

سلاماً حجة الاسلام فينا ورضواناً رجاء المسلمينا
عنيت بما كتبت فكان وحياً يؤيد وحي ملهمك المبينا
فلم تترك لمتهم مكاناً يرى فيه المزاعم والظنونا
فما بطل يخوض الحرب فرداً فما يدعو بآخر مستعينا
جهاداً في سبيل الله يفدي بمهجته المواطن أن تهونا
بأبقى منك آثاراً وذكرا وقدراً في قلوب العالمينا
وكان يراعك المنصور سيفا وكان كتابك الدرع الحصينا
ملكت به معاقل عاليات نبت عنها سيوف الفاتحينا
وما ضرّ الضلال الحاق حتى نفتهم وأوضحت اليقينا
فرفقاً بالمكابر قد كفاه مجادلة وأوشك أن يدينا
ودعه في تأمله عساه يجيئك باعتراف المهتدينا
فلو سلكت ملوك الشرق يوماً سلوكك بيننا دنيا ودينا
تمادى الحق متبعاً مصونا وقام الملك ممتداً أمينا
وعاش التاج مؤتلقاً رهيباً ودام العرش معتزاً متينا
ومثلك لو تحكم مستبداً فقبّل ولا الضمائر والعيونا

﴿فهرسة كتاب الاسلام والنصرانية﴾

صفحه

٠٠٢ مقدمة الطبعة الثانية
٠٠٣ مقدمة ناشر الكتاب
٠٠٧ القسم الاول في النصرانية
اضطهاد العلم والمدنية في النصرانية
تقرير شبهة الجامعة على الاسلام
٠٠٩ الجواب الاجمالي عن شبهة الجامعة
٠١٢ « التفصيلي « «
٠١٣ نفي القتال بين المسلمين لاجل الاعتقاد
٠١٥ تساهل المسلمين مع أهل النظار من كل ملة
٠١٧ طائفة من الحكماء والعلماء الذين حظوا عند الخلفاء
المقصد من القسم الاول
٠٢٣ طبيعة الدين المسيحي وأصوله
٠٢٤ الاصل الاول للنصرانية الخوارق
٠٢٦ « الثاني « سلطة الرؤساء
٠٢٧ « الثالث « ترك الدنيا
٠٢٩ « الرابع « الايمان بغير المعقول
٠٣٠ الخامس « كون الكتب المقدسة حاوية كل مايحتاج اليه البشر فى المعاش والمعاد
٠٣١ « السادس للنصرانية التفريق بين المسيحيين وغيرهم

صفحه

٠٣٢ نتائج هذه الاصول وآثارها
٠٣٤ مبحث إحراق كتب البطالسة والمصريين بالاسكندرية
٠٣٥ قتل هيباتي الرياضية المصرية
٠٣٦ مقاومة النصرانية للعلم
٠٣٩ مراقبة المطبوعات ومحكمة التفتيش
٠٤٣ اضطهاد المسيحية للمسلمين واليهود والعلماء عامة
٠٤٦ مقاومة الكنيسة للحقن تحت الجلد
مقاومتها تسهيل الولادة والسلطة وحرية الاعتقاد
٠٤٧ مقاومتها الجمعيات العلمية والكتب
٠٤٨ البروتستانت او الاصلاح
٠٥٠ الفصل بين السلطتين في المسيحية
٠٥٣ اعتقاد المسلمين في المسيح والمسيحية
القسم الثاني في الاسلام
٠٥٥ طبيعة الاسلام مع العلم بمقتضى اصوله
تمهيد للاصل الاول في بيان دعوتي الاسلام
٠٦٢ الاصل الاول للاسلام النظر العقلي لتحصيل الايمان
٠٦٢ « ٢ « تقديم العقل على ظاهر الشرع عند التعارض
٠٦٣ « ٣ « البعد عن التكفير
٠٦٤ « ٤ « الاعتبار بسنن الله في الخلق
٠٦٧ « ٥ « قلب السلطة الدينية
٠٦٩ السلطان في الاسلام

صفحه

٠٧٣ الأصل ٦ للاسلام حماية الدعوة لمنع الفتنة
٠٧٥ مقابلة بين الاسلام الحربي والمسيحية السلمية
٠٧٩ « ٧ « مودة المخالفين في العقيدة
٠٨٢ « ٨ « الجمع بين مصالح الدنيا والآخرة
وفيه بحث الصحة والرخص وإباحة الزينة والطيبات والاقتصاد
والنهي عن الغلو في الدين
٠٨٦ نتيجة عامة ذاتية
٠٩١ نتائج هذه الاصول وآثارها في المسلمين
٠٩٣ اشتغال المسلمين بالعلوم الادبية ثم العقلية في الصدر الاول
٠٩٤ اشتغالهم بالعلوم الكونية في القرن الثاني
٠٩٥ انشاؤهم دور الكتب العامة والخاصة
٠٩٦ « المدارس للعلوم وكيفية التدريس
١٠٠ علوم العرب واكتشافاتهم
١٠٦ أخذ الخلفاء والأمراء بيد العلم والعلماء
١٠٧ ازالة شبهتين وبيان حقيقة الاضطهاد
القسم الثالث في المسلمين
١١٢ الاسلام اليوم — أو الاحتجاج بالمسلمين على الاسلام
١١٩ رأي رنان الفيلسوف الفرنسي في الاسلام
١٢٠ الجواب عن الاحتجاج
١٢٣ جمود المسلمين وأسبابه
١٢٧ مفاسد هذا الجمود ونتائجه

صفحة

١٢٧ جناية الجمود على اللغة
١٣٠ « « « النظام والاجتماع
١٣٢ « « « الشريعة وأهلها
١٣٦ « « « العقيدة
١٤٠ الجمود ومتعلمو المدارس النظامية
١٤٢ جمود تلامذة المدارس الاجنبية
١٤٣ « « « الرسمية والاهلية
القسم الرابع في العلم والدين ومستقبل الاسلام والمسلمين
١٤٥ الجمود علة زوال
١٥٥ حرية العلم في أوربا الآن، ونسبتها الى الماضي والحاضر في الاسلام
١٥٧ اقتباس مدنية أوربا من الاسلام. وأسباب ظهورها التام
١٥٧ السبب الاول الجمعيات
١٥٨ « ٢ الضغط الديني
١٦٠ « ٣ الثورة
« ٤ ترك المسيحية
١٦٢ عود الى سماحة الاسلام
١٦٥ ملازمة العلم للدين، ودعوى التعصب في المسلمين
١٦٧ إهمال آثار السلف، وحال علوم الدين وطلابها
١٧٠ متابعة العلم للاسلام ومباينته لسواه
١٧٢ الدعاة في الاسلام
١٧٣ المقلد دون المقلد — مقابلة بين المسلمين والمسيحيين

صفحة

١٧٤ الاصلاح والمصلحون
١٧٦ الفرق بين التعصبين
١٧٨ رأي هانوتو الاخير في معاملة المسلمين
١٨٠ سياسة الانكليز في التسامح
١٨١ خاتمة المقال
١٨٣ تأثير المقال وتقريظه

﴿ مجلة «المنار» الاسلامي فى مصر ﴾

انشئت هذه المجلة منذ بضع سنين، لخدمة الاسلام والمسلمين، بل لخدمة العالم الانساني، من طريق الاصلاح الاسلامي، فان الاسلام شرع لاسعاد العباد، فى المعاش والمعاد ، ولذلك تغير سير العالم بعد ظهوره ،واشراق الارض بنوره ،ولكن إصلاحه المادي قد ظهر أخيراً فى شكل كانه ليس منه،واصلاحه الروحي قدغشيته البدع والمحدثات حتى كادت تصد النفوس عنه،فوظيفة المنار بيان أنه مصدر الاصلاحين، لانه منبع الحياتين، فهو يبطل البدع التي طرأت على الدين،ويرد الشبه الموجهة اليه من الملحدين أومن المبشرين، ويبحث عن كل ماأخر المسلمين عن سواهم فى العلم والصناعة ونتائجها من العزة والثروة والقوة

وأبواب المجلة عشرة كاملة (١) تفسير القرآن الحكيم على الطريقة الاجتماعية العمرانية التي توصل العامل بها الى سعادة الدارين وهو مقتبس من المرحوم الاستاذ الامام الشيخ محمد عبده مفتي الديار المصرية (٢) الاحاديث النبوية وآثار السلف الصالح المبينه لاصل مدنية الاسلام ومنشأ سعادة أهله الاولين لتكون قدوة للآخرين (٣) العقائد الاسلامية ،وبراهينها الواضحة الجلية (٤) رد الشبهات عن الدين (٥) الاسئلة المشكلة وأجوبتها المقنعة • وهذه لابواب دينية والتي بعدها عمومية (٦) المقالات وأكثرها اجتماعية اسلامية (٧) التربية والتعليم (٨) الآثار العلمية والفكاهات الادبية (٩) الاخبار والآراء التي تنبه الافكار ،وتعطي العظة والاعتبار (١٠) البدع والخرافات، والتقاليد والعادات ،ولاتفتح هذه الابواب كلها في كل جزء • ولكننا نتراوح بينها، ونتعاقب عليها،

لهذه المباحث المهمة اشتهرت المجلة في العالم الاسلامي شرقه وغربه وشهد لها العقلاء من العلماء والامراء كما شهدت لها الجرائد والمجلات اسلامية وغير اسلامية بأنها المجلة الوحيدة الاسلامية .

كتب رب السيف والقلم صاحب الدولة مختار باشا الغازي ما تعريبه «ان المنار جريدة بريئة من الاغراض الشخصية وعارية من الموضوعات الفاسدة وان العالم الاسلامي يفتخر بوجودها » هذا وان المجلة معرض لافكار عقلاء الامة وعلمائها في الاصلاح الاسلامي فليس ما يكتب فيها من قلم محررها وحده وحسبك أن الاستاذ الامام، ومن هو في هــذا العصر حجة الاسلام ، الشيخ محمد عبده مفتي الديار المصرية (رحمه الله) كان يمدها بعرفانه، ويخدمها بسحر بيانه . عرف ذلك البعيد كالقريب ، حتى كتب العلامة الاديب ، صاحب جريدة (تريت) الفارسية هذا المعنى في تقريظ المنار . وكتب أيضاً : «انه لم يؤلف كتاب ولا رسالة في بيان الحقيقة ومزايا الاسلام أحسن من مجلة المنار» .

ومجلد السنة منها نحو ألف صفحة وقيمة الاشتراك فيها ٥٠ قرشاً مصريا في مصر و ١٨ فرنكا في خارجها و ١٠ روبيات في الهند و ٧ روابل في الروسية وهي تطلب من منشئها في مصر   محمد رشيد رضا

﴿ تنبيه ﴾

يجب أن تكون كل نسخة من هذا الكتاب مختومة بختم مجلة المنار ومن جاءنا بنسخة غير مختومة فله بها خمس نسخ



اذا أردت أن تكون منشئاً بليغاً أو شاعراً فصيحاً أو خطيباً مصقعاً فتفهم كلام الله تعالى فادونه في البلاغة فعليك بقراءة كتابي واضع علم البلاغة الامام عبد القاهر الجرجاني (دلائل الاعجاز) في علم المعاني و(أسرار البلاغة) في علم البيان وثمن النسخة من كلا الكتابين عشرون قرشاً صاغاً من الورق الجيد وأجرة البريد قرشان ويطلبان من ادارة مجلة المنار بمصر ومن سائر المكاتب

اعمال مجلس ادارة الازهر

تاريخ نفيس مفصل يبين ماكان عليه الازهر من الخلل والسلطة في التدريس ومعيشة الطلاب الدراسية والصحية وبيان ماأدخله النظام الذي أدخله فقيد الاسلام الامام محمد عبده رحمه الله بأوفى بيان وأجمل تفصيل وثمن النسخة أربعة قروش صاغ واجرة البريد ٧ ملاليم وللازهريين خاصة ثلاثة ويطلب من ادارة مجلة المنار بمصر ومن المكاتب الشهيرة